جامعة الإمام جعفر الصادق عليه السلام

الإعجاز القرآني

السيد حسن جابر النوري



دار الإسلام

الاعجاز القرآني

حسن جابر النوري



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ ﴿ النساء ﴾.

﴿ وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ﴿ يونس ﴾.

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ﴿ البقرة ﴾.

الإهداء

إلى سيد الخلق ونبي الهدى محمد بن عبد الله ﷺ

الذي حمل الوحي، رسالة هادية، ومعجزة خالدة،

ونوراً يشرق بالعلم، ويهزم ظلام الجهل والديجور..

نهدي هذه الصحائف، في الإعجاز القرآني..

نرجو أن تكون قبساً هادياً ينير طريق الانسانية نحو

الهدى والخير والإيمان، وتبعث في نفوس حملة القرآن

الوعي، والإرادة والأمل.

تقديم

بقلم: حسين بركة الشامي

يعدُّ الإعجاز القرآني من أهم الموضوعات الأساسية في علوم القرآن، وأكثرها خطورة وحساسية، لأنه علم يرتبط بحقيقة ثبوت النص القرآني المنزل من السماء لفظاً ومعنىً على قلب رسول الله ﷺ، ومنه الى البشرية عامة.

لأن القرآن الكريم يمثل في جوهره وأبعاده، وأهدافه، ومحتواه، ورسالته، في العقيدة والتشريع والأخلاق، والتعاليم، والنظم، والاتقان، والانسجام في اللغة على مستوى موسيقى الحروف، والمفردات، وتركيب الجمل والعبارات، معجزة حية، دائمة قوية، تواكب الزمن، والتطور الإنساني، واكتشاف أسرار الكون، وقوانين الطبيعة، وحياة الحيوان والنبات، على سطح هذا الكوكب الأرضي، وفي أعماق البحار والمحيطات، وما يحكم الكون من قوانين فيزيائية، من أصغر ذرة إلى أكبر مجرة.

وإن أعظم ما تعبر عنه المعجزة القرآنية هو التحدي، فمنذ اليوم الأول لنزول القرآن الكريم، وحركته في مرحلة الدعوة في مكة، وفي مرحلة الدولة في المدينة، ولا يزال هذا الكتاب العزيز بعد مرحلة الدعوة والدولة التي أكمل الله فيها رسالته، وأتم شريعته، ومنظومة تعاليمه، إلا أن القرآن ما زال يواصل نبرة التحدي بكل ثقة وجدارة.

وقد واجه القرآن الكريم العقل العربي المتخم بفنون اللغة وآدابها، ومواهب الشعر والنثر والحكمة، إذ صدمه بأسلوبه الأخّاذ المتميز، وأمثاله وصوره، وروائع قصصه ومواعظه، وسبك بيانه وانصباب بلاغته، وفلسفته في التشريع، والردع عن الجريمة، ومكارم الأخلاق والفضيلة.

وقد حاول العرب جاهدين، مواجهة هول صدمة القرآن التي أحدثت عندهم الخلل في التوازن، والتخبط في المواقف، والإرتباك في المواجهة.

ومن هنا فقد تراجعوا مستشعرين الخيبة والهزيمة النفسية، أمام منطق القرآن المحكم وعظمة بلاغته وبيانه، حتى قال ناطقهم في وصف القرآن بعد أن فكر وقدر، وهو «الوليد بن المغيرة» : «إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن اسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه».

وهذه شهادة من ذوي الخصومة والاختصاص، لعظمة هذا القرآن، وأنه لكلام ليس من كلام البشر، إنما هو وحي معجز لا يجارى.

وهنا اتبع العرب سبيل المقاطعة، وعدم الاقتراب من القرآن خشية التأثر به، والسقوط تحت ضغط كلماته الموحية بثقل المعاني، ودقة الأفكار، وعظمة النظم والتشريع.

فقد لجأت قريش إلى التشويش على القرآن، ومنع المسلمين من قراءته، بل كانت تمنع الناس من الإستماع الى كلام الله، وهنا يروي ابن هشام في سيرته، رواية لا تخلو من إثارة، وهي قصة اسلام الطفيل بن عمرو الدوسي، فيقول:

«كان الطفيل بن عمرو الدوسي، يحدّث: أنه قدم مكة، ورسول الله ﷺ بها، فمشى إليه رجالٌ من قريش، وكان الطفيل رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً، فقالوا له: يا طفيل، إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل - يقصدون الرسول ﷺ - الذي بين أظهرنا، قد أعضل بنا، وقد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما قوله كالساحر، يفرّق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وبين زوجته، فلا تسمعن منه شيئا.

قال: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئاً، ولا أكلمه، حتى حشوت أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفاً، «قطناً» فرقاً من أن يبلغني شيء من قوله، وأنا أريد أن أسمعه، قال: فغدوت إلى المسجد، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، فقمت منه قريباً، فابى الله إلا أن يسمعني بعض قوله، فسمعت كلاماً حسناً، فقلت في نفسي: والله إني رجل لبيب شاعر، ما يخفى عليّ الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول،

فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته، وإن كان قبيحاً تركته، فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته، فاتبعته حتى إذا دخل بيته، دخلت عليه، فقلت: يا محمد، إن قومك قالوا لي كذا. وكذا. للذي قالوا فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك، حتى سددت أذني بكرسف، لئلا أسمع قولك، فأبى الله إلا أن يسمعني قولك، فسمعته قولاً حسناً، فاعرض علي أمرك، قال: فعرض علي رسول الله ﷺ الإسلام، وتلا عليّ القرآن، فلا والله ما سمعت قولاً أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه، فاسلمت، وشهدت شهادة الحق» [1].

إن أمثال هذه الحوادث تعبر عن حقيقة كبيرة، وهي أن القرآن كان معجزة في اسلوبه ومضمونه وايقاعاته، وأن العرب كانت عاجزة تمام العجز عن منع تأثيراته الروحية والفكرية، وقوة بيانه وأساليبه، ولذلك كانت تلجأ إلى الأساليب الملتوية، والطرق الإرهابية، والتخويفية لابعاد

---

(١) سيرة إبن هشام ج١ ص٤٠٧

الناس عن الرسول ﷺ ، فكانت قبل مواسم الحج تستنفر طاقاتها ، وتنشّط برامجها الإعلامية ، لمنع لقاء الحجيج بالرسول ﷺ .

وما حادثة متابعة قريش للمسلمين المهاجرين إلى الحبشة ، إلاّ دليل آخر على خشيتهم من تأثير هذه الجماعة المؤمنة على النجاشي ملك الحبشة ، والتأثير على الرأي العام في الشعوب الأخرى.

وقد حاول الكثيرون من غير العرب أن يكتشفوا نقطة ضعف واحدة ، أو يجدوا ثغرة في هذا القرآن ، يتسللون منها إلى نقاط ضعف غيرها ، أو يجدون مفصلاً رخواً يدخلون منه إلى عالم هذا الكتاب السماوي الخالد ، ولكنهم كانوا دائماً يتراجعون مستسلمين لعظمة القرآن ، وصدق فحواه ومحتواه.

وهنا نذكر محاولة خائبة ؛ لإسحاق الكندي ، فيلسوف العراق ، المعاصر للإمام الحسن العسكري ، وهي :

«فقد روى أبو القاسم الكوفي، في كتاب «التبديل» أن اسحاق الكندي، فليسوف العراق في زمانه، أخذ في تأليف تناقض القرآن، وشغل نفسه بذلك، وتفرد به في منزله، وأن بعض تلامذته دخل يوماً على الإمام الحسن العسكري عليه السلام، فقال له أبو محمد عليه السلام:

أما فيكم رجل رشيد يردع استاذكم الكندي عما أخذ فيه، من تشاغله بالقرآن.

فقال التلميذ: نحن تلامذته، كيف يجوز منا الاعتراض عليه في هذا أو غيره.

فقال أبو محمد عليه السلام: **أتؤدي إليه ما ألقيه إليك؟** قال: نعم. قال: **فصر إليه وتلطف في مؤانسته، ومعونته على ما هو بسبيله، فإذا وقعت الأنسة في ذلك، فقل: قد حضرتني مسألة، أسألك عنها، فسوف يستدعي ذلك منك، فقل له: إن أتاك هذا المتكلم بهذا القرآن هل يجوز أن يكون مراده بما تكلم به منه غير المعاني التي قد ظننتها أنك ذهبت**

إليها فإنه سيقول: من الجائز لأنه رجل يفهم إذا سمع، فإذا أوجب ذلك فقل له: فما يدريك لعله قد أراد غير الذي ذهبت أنت إليه، فتكون واضعاً لغير معانيه.

فصار الرجل إلى الكندي، وتلطف إلى أن ألقى عليه هذه المسألة، فقال له:

أعد عليّ فأعاد عليه، فتفكر في نفسه، رأى ذلك محتملاً في اللغة، وسائغاً في النظر.

وفي المناقب ج ٤٤ ص ٤٢٤، فقال: أقسمت عليك إلا أخبرتني أين لك ذلك!؟. فقال: إنه شيء عرض بقلبي فأوردته عليك. فقال: كلا ما مثلك من إهتدى إلى هذا، ولا من بلغ هذه المنزلة، فعرفّني من أين لك؟، فقال: أمرني به أبو محمد، فقال الآن جئت به، وما كان ليخرج مثل هذا إلا من ذلك البيت. ثم أنه دعا بالنار وأحرق جميع ما كان ألفه[1].

---

(١) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ٣١١.

كما حاول كثير من المستشرقين وغيرهم من اعداء الإسلام وخصومه، أن يكتشفوا ويشيعوا، نقطة ضعف هنا أو هناك، في شكل ومضمون القرآن الكريم، إلا أنهم كانوا يصطدمون بجدار الحقيقة، وكانوا يرتدون على أدبارهم، لم يحصلوا على شيء في كل هذه المحاولات الخائبة.

وهكذا ينتهي خصوم القرآن الى الفشل والخيبة، ويظل القرآن حقيقة كبيرة ناصعة، يتلى آناء الليل، وأطراف النهار، وهو كتاب يهدي للتي هي أقوم، كما أنه نور وذكر وهدى، وفرقان، وموعظة بالغة، وقد تعددت البحوث وتنوعت الدراسات، في آفاق القرآن، ومجالاته الرحبة.

والإعجاز القرآني علم واسع الأبعاد، رحيب الآفاق، لا يختص بجانب دون جانب، فهو يتحرك في أبعاد كثيرة، وفي جوانب متنوعة، فهناك من بحث في الإعجاز اللغوي والبياني، باعتبار أن القرآن لم يكن معجزة حسية، كمعاجز الانبياء السابقين عليهم السلام قبل النبي صلى الله عليه وآله، كما هي معجزة إبراهيم، وموسى، وعيسى عليه السلام، وغيرهما من الأنبياء

والرسل، إنما القرآن الكريم معجزة عقلية، تستثير العقل البشري، بالتساؤلات، والاكتشافات، والإثارات، وأسرار الكون والطبيعة والإنسان.

قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) ﴾ ﴿الطور﴾.

ففي هذه الآية الكريمة على إيجازها، تركيز على المنهج الفكري والمنطقي، الذي يجب أن يتبع في الوصول إلى الحقيقة، فالآية تسأل من هو الذي خلقكم أيها الناس، هل خلقتم من العدم؟. «من غير شيء».

ونحن نعرف أن العدم لا يوجد شيئاً، طالما هو عدم، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، أم خلقتم من قبل أنفسكم، وهنا يبرز سؤال آخر، متى وجدتم، هل حينما كنتم عدماً، وقلنا أن العدم لا يعطي وجوداً، أم أنكم وجدتم بعد أن أصبحتم موجودين، وهذا تحصيل حاصل، وهو باطل.

إذن آية واحدة موجزة استطاعت أن تحرك العقل البشري، وأن ترسم له معالم المنهج العلمي للوصول الى النتائج الصحيحة، من خلال استخدام المقدمات الصحيحة.

وهناك بُعد آخر من الإعجاز القرآني يطلق عليه؛ التنبؤ بالغيب، والإخبار عن أحداث المستقبل.

فقد اشار القرآن الكريم إلى احداث كثيرة لم تقع بعد، وقد وقعت حسبما أنبأ القرآن، ولعل من أشهرها قصة غلبة الروم، كما في قوله تعالى:

﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾ ﴿الروم: ٢ ـ ٤﴾.

ولا نريد أن نسهب في هذا الجانب، وقد ذكر هذا البُعد الإعجازي كثير من العلماء والمفسرين الذين بحثوا في علوم القرآن.

وهناك اعجاز علمي آخر للقرآن الكريم، يتجلى من خلال الإشارات الكثيرة التي ذكرها القرآن في قضايا تخص علم الفيزياء، والأحياء، والفلك، والتشريح، والبحار، وأسرار بصمات الأصابع والقرنية، وغيرها من العلوم التي ذكر فيها القرآن حقائق وقوانين تحكم الكون والطبيعة، كانت تمثل المنطلقات العلمية للعلماء والباحثين، ومن خلال تلك الحقائق اكتشفوا مجموعة كبيرة من النظريات العلمية في علم الإنسان والحيوان والنبات والطبيعة.

وهناك اعجاز آخر ما زال موضع بحث وتأمل وتفكير لدى علماء التشريع والقانون، على مستوى الأحوال الشخصية، وبناء الأسرة والمجتمع، وأنظمة الدولة.

ففي الوقت الذي نزل القرآن في مجتمع بدائي مشتت، وفي أرضٍ خالية من جذور الحضارات، وبناء الدول، ولا تمتلك خلفية ثقافية في التشريع والقوانين المعتمدة، ومع ذلك فإن القرآن جاء بمنظومة تشريعات وقوانين ليست لبناء

الإنسان الفرد بحسب، إنما تهدف إلى بناء الإنسان الفرد والمجتمع، والنظام، والدولة.

وما زالت هذه التشريعات الإسلامية تشكل القاعدة الأساسية لكثير من التشريعات الوضعية والمدنية التي جاءت بعدها، وما زال التشريع الإسلامي يمتلك من الأصالة والمرونة ما يجعله يلبي حاجات الإنسان في مختلف جوانبها الفردية والاجتماعية والسياسية، والاقتصادية، والحضارية.

ولا نريد في هذه المقدمة أن نستوعب كل الآفاق الإعجازية في القرآن الكريم، لأن ذلك يحتاج إلى بحث موسع، وقد أغنانا علماؤنا الأبرار في القديم والحديث، لبحث هذا الموضوع الحيوي الذي يجعل من القرآن كتاباً معجزاً، يتربع على عرش الفكر، والثقافة، وآخر ما وصل إليه الإنسان من تقدم في العلوم، وبناء المجتمع.

وإذا أردنا أن نستعرض أهم الكتب والمصنفات التي تناولت موضوع الإعجاز، فإننا نقف عاجزين عن

الإحصاء، لأن مسألة البحث في الإعجاز مسألة قد واكبت القرآن الكريم، في كل مراحله الزمنية، ولم نشهد عصراً واحداً بعد نزول القرآن يخلو من مجموعة كبيرة من المصنفات في هذا المجال.

وأما في العصر الحديث فقد أصبح الإعجاز القرآني علما مستقلاً له أصوله ومرتكزاته، وله مناهجه ومدارسه، وله علماؤه ومختصوه، وقد كتبت فيه الرسائل والدراسات المعمقة، وفي مختلف اللغات، وفي كل يوم تزداد هذه البحوث والدراسات سعةً وعمقاً.

ومهما كثرت فإنها تمثل قراءات، واجتهادات ودراسات تبحث على شاطئ القرآن ويبقى القرآن كتاباً واحداً، ثابتاً راسخاً، قوياً متحدياً معجزاً، لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه.

وما تلك الدراسات والبحوث، إلاّ قراءات بشرية، اجتهادية لهذا الكتاب المعجز، حتى قال بعضهم بنظرية

«الصرفة» ، وهي تعني في بعض تفسيراتها ؛ أن الله تعالى قد صرف عقول البشر، وقدراتهم الذهنية من أن يدركوا عمق القرآن، وعظمته، فهم كلما حاولوا أن يصلوا إلى تفسير واضح محدد، أو يكتشفوا نقطة ضعف فيه، فإن الله يدفعهم بإرادته وحكمته لأنه تكفل بحفظ كتابه، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ ﴿الحجر﴾.

ونظرية الصرفة ؛ قد تناولها «الإعجاز القرآني» بشيء من التطويل، فلا نسهب فيها.

وهذا الكتاب الذي بين يدي القارئ الكريم: «الإعجاز القرآني» هو مجموعة من البحوث والدراسات العلمية، لسماحة العلامة الأخ السيد حسن جابر النوري «دامت بركاته» كان قد ألقاها على بعض الشباب الباحثين، المتفتحين بالوعي القرآني، وكانت بحق بحوثاً تتسم باسلوب لغوي محكم، والدقة والموضوعية، والتوثيق العلمي.

فقد اعتمد الباحث على المصادر الحديثة، وخصوصاً ما قدمه الأعلام المعاصرون كالسيد الطباطبائي صاحب الميزان، والإمام الشهيد الصدر، والشهيد مطهري، والسيد الخوئي، ومالك بن نبي، والدكتور محمد عبد الله دراز، وغيرهم من الباحثين المعاصرين على اختلاف مناهجهم، ودراساتهم في هذا المضمار.

كما أنه اعتمد على ما قدمه جهابذة علم الإعجاز، وعلمائه الأقدمين، كالشيخ المفيد، والشريفين الرضي والمرتضى، والسيوطي، وغيرهم من العلماء الأوائل الذين كان لهم قصب السبق في اكتشاف أسرار القرآن، ومعرفة مغازيه، والوقوف على حقائق إعجازه، ومعانيه.

وفي ختام هذه المقدمة، لا بدّ من كلمات عن الإستاذ السيد النوري الذي قدم هذه البحوث لطلبة الدراسات العليا لنيل درجة الماجستير. فالأخ السيد النوري، جمعتني وأياه مسيرة علمية وثقافية تمتد إلى قرابة نصف قرن من الزمن المثقل بالهموم والمشاريع، والمزدحم بالأعمال والتقلبات.

فقد بدأنا دراستنا معاً منذ خطواتنا الأولى في جامعة النجف الأشرف، الجامعة العريقة ذات الألف عام، سنة ١٩٧٠م، وكان حفظه الله، والحق يقال: له تميز وإلتماع بالذكاء، والجدية، والمثابرة، والحرص على مواصلة الدرس في مختلف الظروف والمناسبات.

فقد استطاع أن يطوي دروس المقدمات، والسطوح العالية، ودخول بحوث الخارج، وهي كثيرة ومعقدة حتى أصبح أستاذاً يشار إليه في أجواء الحوزة، ومع مرور الزمن اكتسب إعترافاً من الجامعة الدينية يشهد له بتفوقه العلمي، وقدرته على الخوض في أغوار علمي الأصول والفقه، والكلام والفلسفة، وهو أمر يصعب أن يكتسبه طالب عراقي قادم من جنوب العراق، إعترافاً رسمياً في مدة قصيرة، من الحوزة العلمية التي تحكمها موازين وأعراف تقليدية وكلاسيكية صعبة.

كما جمعتني وإياه قيود الاعتقال، وغياهب السجون الرهيبة في بغداد، إذ تعرض سماحته للاعتقال مع كوكبة

العلماء، والشباب الدعاة المثقفين، الذين لقوا أشد انواع التعذيب، والقمع البعثي، عام ١٩٧٩م، وذلك حينما كان يمثل المرجعية الدينية، ومعتمداً لدى الشهيد الصدر في مدينة الصدر في بغداد آنذاك.

وكان السيد النوري في هذه المحنة، صامداً، صابراً، محتسباً، حتى خرج من السجن وهو أصلب عوداً، وأشد شكيمة ووعياً، لخطورة مشروع حزب البعث، وأثره على العراق، عقيدة، وشعباً، وتراثاً.

وهنا يضيق العراق على السيد النوري وأمثاله من العلماء الأحرار، والدعاة المجاهدين الأبرار، فهاجر في مطلع الثمانينات إلى الجمهورية الإسلامية ليواصل في حوزة قم المقدسة جهده العلمي، ويجمع حوله الطلبة والشباب في المهجر ليصنع منهم علماء وخطباء ومبلغين، يشكلون اليوم جيلاً واعداً من العلماء الواعين في مختلف المواقع والساحات.

وهكذا كان دوره متميزاً في هذا الجانب، حتى هاجر هجرته الثانية إلى بلاد الشام، مستقراً في حارة السيدة زينب، عقيلة الطالبيين، وهناك شارك في تأسيس حوزة المرتضى، ومارس التدريس في غيرها من الحوزات والمعاهد العلمية في سوريا.

فكان الاستاذ الأبرز، والرمز الديني لتوجيه وتربية العشرات من شباب الجامعات، والمتطلعين الى دراسة الفكر والفقه والعقيدة والتراث، وكان موضع اعتمادن مراجع الدين والعلماء المتصدين.

وشاءت الأقدار والظروف أن يصل إلى لندن في الفترة الأخيرة من هجرته، فكانت لنا لقاءات علمية وثقافية وروحية وأدبية، نستذكر فيها سنوات الدراسة، وأشواط المحبة، وذكريات التأريخ.

وكما هو ديدنه في الدرس والبحث، وعقد الندوات العلمية، والثقافية، فقد تحركت الأجواء الثقافية في لندن بفضل وجوده، وقوة حركته.

وبعد سقوط النظام البعثي عام ٢٠٠٣م، عاد السيد النوري كما عاد غيره من العلماء والمهاجرين، إلى عشه الأول، وبحبوحته الجميلة في حوزة النجف الأشرف.

فقد اتخذ من مدرسة الرسول الأعظمﷺ في النجف الأشرف منطلقاً ليواصل مهمته في خدمة الدرس الشرعي، وإعداد الطلبة والعلماء والمبلغين، إذ أسس مدرسة متقدمة بالوعي والعمق والامتداد، وهو يمثل رمزها العلمي، ورائدها الأول الذي يحنو على تلامذته ومحبيه، بكلماته الواثقة، ودروسه النافعة، وتواضعه الجم، ومحبته للجميع.

وجامعة الإمام جعفر الصادقعليه السلام إذ تقدم هذا الكتاب «الاعجاز القرآني» لسماحة السيد النوري، فإنها ترجو أن يكون مصدراً فكرياً للباحثين والمثقفين، كما أنها ترجو أن يكون إضافة جديدة للمكتبة القرآنية التي تزخر بمئات البحوث والمصنفات، في هذا المجال الذي ما زال، خصباً ندياً ينتظر المزيد من البحوث والدراسات في علوم القرآن الكريم.

نسأل الله تعالى أن يزيد في توفيق السيد الباحث، والشباب الذين تعاونوا معه في انجاز هذا الجهد المتميز، في الفكرة والمنهج والأسلوب، وأن يجعله علماً من أعلام الإسلام، ورائداً من رواد مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وأن يكون امتداداً فكرياً وروحياً لاستاذه العظيم الامام الشهيد السيد محمد باقر الصدر رضوان الله عليه.

ومن الله التوفيق

حسين بركة الشامي
رئيس مجلس الإدارة
١ / شباط / ٢٠١٦
بغداد

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين وصحبه المنتجبين وبعد:

هذه صفحات تمثل لأصحابها -وهم متحاورون أكثر منهم مدرسون ودارسون- أروع الساعات والأيام لأنها تجولت في ربوع القرآن الكريم «أعظم كتاب» في أسلوبه وغاياته، في طريقته وأهدافه، الكتاب الذي يتشرف كل مسلم أن يتلفظ كلماته ويطهّر لسانه وقلبه بتلاوته وأن يقترب من آفاقه ويدخل في ساحة قدسه، الكتاب الإلهي الذي يكشف عن عظمة الله سبحانه كأعظم ما يكون الكشف والإبانة، يترفق هذا الكتاب بالإنسان المخاطب به وبالكائنات العاقلة التي تسكن حوالي البشر.

لهذا كان من عطاء اللقيا بالقرآن الكريم مئات الدراسات عن مناهجه، ومقاصده، وأساليب هداياته، ووجوه إعجازه.

إن الإنسان لا يشعر بالملل والسأم من تدوام مراجعة كتاب الله سبحانه، بل إنه ليزداد روحانية وثقافة كلما أمعن النظر والتدبير فيه.

وكل إنسان له معرفة وإلمام بلغة العرب يأخذ من هذا الكتاب بحظ من المعرفة، وقبسٍ من الهداية، وطيف من النور.. ولقد سعى الدارسون إلى بيان وجوه إعجاز القرآن الكريم لتطمئن قلوبهم إلى كتاب الله سبحانه وليثبتوا المصدر الإلهي في وحي هذا القرآن.

وتعددت وجوه الإعجاز القرآني، فقد نظر بعض الدارسين إلى دراسة آثار القرآن الكريم على القلوب والعقول والأرواح، ونظر آخرون إلى البيان والكشف عن الغيب، والاستقامة «عدم وقوع الاختلاف فيه» والمعارف التي عرضها القرآن وكشفه عن أسرار الطبيعة والحياة والخليقة، وهي أيضاً تشريعاته المتوائمة مع ما يحتاجه الإنسان.

وقد ركزنا نحن على بعض الوجوه راجين أن تتوفر لنا الفرصة لدراسة الوجوه الأخرى، وكان أكثر همِّنا مدارسة أشمل وجه من وجوه الإعجاز وهو «الإعجاز البياني البلاغي، الفني» وكان من حق هذا الوجه أن تقرأ له أهم وأشهر ما كتب عنه.

لهذا مررنا على أسماء لامعة قديمة وجديدة اقترنت كتاباتها بكتاب الله جاهدة أن تطرح علينا فكرة هامة، أو لمحة معبّرة، أو إشارة بليغة، ولهذا تجمعت من هذا التجوال أفكار هامة ولمحات معبّرات، وإشارات بالغات التأثير في الكشف عن هذا الوجه الهام من الإعجاز. لقد كان أعظم علماء العربية يفتخرون بأنهم سعوا إلى تفسير الإعجاز البياني للقرآن الكريم.

كم هو جميل أن تجتمع سبائك الذهب من ذرات هنا وهناك، ونحن نعلم أن كتاب الله مفتوح لمن طهر قلبه وأعدَّ عدته الأدبية والعلمية، فالمجال رحب يمكن أن يتلقّى كل حينٍ جديداً يتحول إلى قديم بمرور الليل والنهار.

ولم تستطع الخلافات المذهبية أن تجعل كُبريات قضية الإعجاز تحت سيطرة الاختلاف والمنابذة، وإن شملت بأوارها جوانب تفصيلية في القضيَّة نفسها «ولعل من إعجاز القرآن أن تظل الأجيال تتوارد عليه جيلاً بعد جيل، وهو رحب المدى سخي المورد، كلما حسب جيل أنه بلغ منه مبلغاً امتد الأفق بعيداً وراء كل مطمع وفوق كل طاقة»[1].

ومن الطبيعي أن نتناول في قضية الإعجاز دراسة الفوارق بين المعجزة والسحر، وبينها وبين الابتكار العلمي، ثم بينها وبين الكرامة، وبيان تاريخية البحث تعين الدارس على فهم تطور البحث، لهذا وقع الحديث عن الجانب التاريخي للإعجاز.

ينفتح بعد ذلك الباب مشرعاً أمام بحث الإعجاز منهجياً لتناول نماذج من دراسات حديثة للإعجاز، لنلتقي مع نموذج السيد الشهيد محمد باقر الصدر، والشيخ الشهيد

---

(١) بنت الشاطئ: الإعجاز البياني للقرآن، ص٣٤، ط دار المعارف الطبعة الثانية.

مرتضى مطهري، وسيد المفسرين السيد الطباطبائي، ونموذج الأستاذ مالك بن نبي.

ثم تطرّقنا لعلاقة المعجزة بقانون العليَّة، وبعدها ولجنا باب المعجزة الخالدة، وهي القرآن العظيم، حيث استعرضنا جانب الإعجاز البياني في نظمه، ومعانيه، ونغمه، ورددنا القول بالصرفة تفصيلاً، ثم أتينا على ذكر الإعجاز العلمي.

وتوقفنا هنا على أملٍ بمتابعة الكتاب بجزء ثانٍ سيرى النور قريباً إن شاء الله تعالى. ولابد لي من التنويه هنا بأنه كان جهداً مباركاً بالقرآن ذلك الجهد الذي بذله طالب ألمعي من طلابنا، هو خلدون أبو عيد.. وقد وجدت فيه كما وجدت في زملائه وإخوانه الحبّ والعلاقة الحميمة لكتاب الله.

لهذا كان إنجازه في فترة قياسية رغم طبيعة المادة الواسعة، فالقرآن بحر لا ساحل له وإعجازه كذلك، ورغم محدودية الفترة المعطاة لإنجاز البحث.

جزاه الله وجزى إخوانه خير الجزاء وجعلهم ممن يقدّم لكتاب الله الجهد والوقت.

حسن جابر النوري

الفصل الأول

بحث حول التسمية بالمعجزة

تمهيد

المعجزة لغة:

العجز نقيض الحزم.

ومعنى الإعجاز: الفوت والسبق «يقال: أعجزني الأمر أي فاتني».

وأعجاز الأمور أواخرها.

وعجز بيت الشعر خلاف صدره[1].

وعجز عن الشيء، ضعف ولم يقدر عليه[2].

---

(١) لسان العرب: مادة عجز.

(٢) المعجم الوسيط مادة عجز.

وعَجَزَت المرأة صارت عجوزاً، وعَجِز عجزاً حَزُم، وعجز عن كذا: لم يقتدر عليه[1].

وعاجز الرجلُ إذا هرب فلم يُقدر عليه، والعجز من الرجل والمرأة ما بين الوركين[2].

والهاء في المعجزة هي للمبالغة كعلاّمة ونسابة، وفي الذكر الحكيم: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ ﴾ ﴿القيامة﴾.

وقال الطبرسي في المجمع الإعجاز: إيجاد ما يعجز عنه، والعجز معنى عند أبي علي الجبائي وأبي القاسم البلخي، وليس بمعنى عند أبي هاشم وأصحابه بل هو عدم القدرة وذهب إليه المرتضى.

الإعجاز إيجاد العجز ضد القدرة عند من أثبته معنى.

الإعجاز هو الفوت بالهرب[1].

---

(١) المنجد في اللغة مادة عجز.

(٢) المصباح المنير مادة عجز.

وقال الراغب الأصفهاني[٢]:

عجزُ الإنسان: مؤخره وبه شُبِّه مؤخر غيره، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ ﴿القمر﴾. والعجز أصله التأخر عن الشيء وحصوله عند عَجُز الأمر أي مؤخره، كما ذُكر في الدبر. وصار في التعارف اسماً للقصور عن فعل الشيء وهو ضد القدرة.

قال تعالى: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ﴾ ﴿المائدة: ٣١﴾.

وأعجزت فلاناً وعجزته وعاجزته جعلته عاجزاً. قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾﴾ ﴿التوبة: ٢﴾.

﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿الشورى: ٣١﴾.

---

(١) مفردات القرآن في مجمع البيان / الياس كلانتري.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن تأليف الإمام الراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان داودي.

﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ﴾ ﴿الحج: ٥١﴾.

وقرىء معجِّزين، فمعاجزين قيل معناه ظانين ومقدرين أنهم يعجزوننا لأنهم حسبوا أن لا بعث ولا نشور فيكون ثواب وعقاب، وهذا في المعنى كقوله:

﴿ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَا ﴾

﴿العنكبوت: ٤﴾.

ومعجِّزين: ينسبون إلى العجز من تبع النبيﷺ وذلك نحو جهَّلته وفَسَّقْتُهُ أي نسبته إلى ذلك، وقيل معناه: أي يثبطون الناس عن النبيﷺ كقوله:

﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ﴿الأعراف: ٤٥﴾.

والعجوز: سميت لعجزها في كثير من الأمور قال تعالى:
﴿ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ١٣٥ ﴾ ﴿الصافات﴾.

وقال: ﴿ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ ﴾ ﴿هود: ٧٢﴾.

نتائج البحث:

١- العجز يتضمن معنى الضعف والفوت والسبق والتأخر.

٢- أنَّه يخالف في المعنى الحزم والقدرة.

٣- هذا التخالف بين العجز وكل من الحزم والقدرة اختُلِفَ فيه –فاختار الجبائي والبلخي أنَّ النسبة بينهما هي نسبة الضدين.

فيكون العجز أمراً وجودياً كالحزم والقدرة هو ما يلوح أيضاً من كلام الراغب الأصفهاني. واختار السيد المرتضى من الإمامية أنَّ النسبة هي نسبة النقيضين لأنَّ العجز عدمي لا وجودي. وهو ما يلوح من كلام ابن منظور في لسان العرب.

٤- أمَّا الإعجاز فهو فعلُ وإيجاد ما يعجز عنه، وبالتالي فهو أمر وجودي لا عدمي.

المعجز اصطلاحاً: عرفوا المعجزة اصطلاحاً بعدة تعاريف منها:

١- أمر يعجز البشر متفرقين ومجتمعين عن الإتيان بمثله[١].

٢- أمر خارق للعادة خارج عن حدود الأسباب المعروفة، يخلقه الله تعالى على يد مدعي النبوة عند دعواه إياها شاهداً على صدقه[٢].

٣- أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم من المعارضة وهي إمَّا حسية وإمَّا عقلية، وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم، وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم وكمال أفهامهم، ولأنَّ هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة خُصت بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذوو البصائر..[٣].

---

(١) مناهل العرفان للزرقاني١ / ٧٤، المطبعة العصرية، ط٢٠٠٤.

(٢) مناهل العرفان للزرقاني١ / ٧٤، المطبعة العصرية، ط٢٠٠٤.

(٣) الإتقان في علوم القرآن، ص٧١٠، دار الكتاب العربي، ط٢٠٠٤.

٤- أن يأتي المدعي لمنصب من المناصب الإلهية بما يخرق نواميس الطبيعة ويعجز عنه غيره شاهداً على صدق دعواه[١].

٥- ثبوت ما ليس بمعتاد أو نفي ما هو معتاد مع خرق العادة ومطابقة الدعوى[٢].

٦- قصد إظهار صدق النبي في دعوى الرسالة بفعلٍ خارق للعادة[٣].

٧- أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم من المعارضة يظهره الله على يد رسله[٤].

٨- أن يحدث النبي تغييراً في الكون يتحدى به قوانين الطبيعة التي ثبتت عن طريق الحس والتجربة كدليل على صدق دعواه[٥].

---

(١) البيان في تفسير القرآن / السيد الخوئي، ص٣٣.
(٢) تجريد الاعتقاد / الخواجة نصير الدين الطوسي، ص، ط.
(٣) الإعجاز في القرآن طريق إلى الإيمان / منى الطحان، ص١٨، دار سعد الدين، ط١ / ١٩٩٩.
(٤) مباحث في إعجاز القرآن د. مصطفى مسلم ص١٨ / ظ٣. دار الكلم. ولا يخفى أن هذا التعريف مزج بين تعريفي السيوطي والزرقاني السابقين.
(٥) المدرسة القرآنية الشهيد السيد محمد باقر الصدر ص٢٧٩. وعلوم القرآن للسيد محمد باقر الحكيم ص٨٩ ط٣ / ١٩٩٥. دار التعارف.

٩- المعجزة اسم فاعل من الإعجاز وهي في الشرع أمر خارق للعادة من ترك أو فعل مقرون بالتحدي مع عدم المعارضة.[١]

١٠- ما يأتي به إنسان بتأييد إلهي ويعجز عنه غيره، غير مستحيل عقلاً ويخرق السنن الطبيعية إثباتاً لمنصب إلهي يدعيه[٢].

١١- هي فعل وأثر يأتي به النبي للتحدي -أي لإثبات مدعاه- ليكون علامة على وجود قدرة ما وراء بشرية في إيجاده تفوق حدود الطاقة الإنسانية بشكل عام[٣].

١٢- الأمر الخارق للعادة الدال على تصرف ما وراء الطبيعة في عالم الطبيعة ونشأة المادة لا بمعنى الأمر المبطل لضرورة العقل[٤].

---

(١) موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ٢ / ١٥٧٥.

(٢) موجز علوم القرآن د. داود العطار ص٤٩ ط٣ / الأعلمي ١٩٩٥.

(٣) النبوة، مرتضى مطهري ص١٧٦.

(٤) الميزان ج١ ص٧٣.

التعريف المختار

اختار المحقق الشيخ جعفر السبحاني تعريف شرح التجريد السابق وهو «المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي مع عدم المعارضة» مع إضافة قيد «مع دعوى النبوة» ثم قال: ولعلهم استغنوا عنه بقيد التحدي[1].

إلا إن تلميذ المحقق -أعني الشيخ علي رباني الكلبايكاني- علق على كلام أستاذه في تلخيصه للإلهيات قائلاً: «لا تختص المعجزة بدعوى النبوة، بل يعمها ودعوى الإمامة وغيرها من الدعاوى الإلهية كدعوى المسلم أنَّ شريعة الإسلام هي الحق دون غيرها من الشرائع ويقوم بالمباهلة فذلك معجزة البتة. فالصحيح في تعريف المعجزة هو ما طرحه السيد الخوئي «الفعل الخارق للعادة الذي يأتي به

---

(١) الإلهيات ج٣ ص٦٩.

من يدعي منصباً أو مقاماً إلهياً شاهداً على صدق دعواه»[1].

كما أنَّ الدكتور داود العطار رجَّح تعريف السيد الخوئي على التعريف الأول للزرقاني في مناهل العرفان من أربعة وجوه فراجع[2].

(١) محاضرات في الإلهيات ص٢٥٩.

(٢) انظر موجز علوم القرآن ص٤٩.

تحليل التعاريف الاصطلاحية السابقة

بالرغم من اختلاف بعض التعاريف السابقة عن بعضها الآخر في الجامعية والمانعية لكننا نستطيع إبراز عناصر أساسية لا بدَّ من توافرها لقيام المعجزة:

١- عجزُ الآخرين عنها «وبالتالي فهي غير قابلة للتعليم والتعلم».

٢- أنَّها خرق للقوانين الطبيعية «أمَّا من يأتي بأمر بناءً على الحس والتجربة فليس بمعجزة كالصعود إلى القمر».

٣- إنها ليست مستحيلة عقلاً «كإبطال اجتماع النقيضين أو ارتفاعهما» بل المعجزة محكومة بقانون العلية العامة كما سيأتي.

٤- إنها في صدد إثبات دعوى المنصب الإلهي[1].

---

(١) انظر موجز علوم القرآن مصدر سابق ص٤٩.

٥- اقترانها بالتحدي وعقيب الدعوى «لأن الأمر المعجزة بمثابة الشاهد، ولا يقوم الشاهد إلاَّ بعد قيام الدعوى، إما إذا تقدم على دعوى الرسالة فيكون من قبيل (الإرهاص) كتظليل السحابة لرسول الله ﷺ»[1].

٦- مطابقتها للدعوى «بحيث يكون شاهد صدق له». أمَّا إذا لم يطابق ما ادعاه فلا إعجاز لأنَّه حينئذٍ يكون شاهد كذب المدعي، كما حكي في مسيلمة الكذاب حيث إنه أراد ازدياد ماء البئر ليكون معجزاً على دعواه فتفل فيه فصار ماؤه غائراً ومسح على المريض ليشفى فمات وأمَّر يده على رؤوس صبيان بني حنيفة وحنكهم فأصاب القرع كل صبي مسح على رأسه ولثغ كل صبي حنكه وهو ما يطلق عليه العلماء اسم «الإهانة»[2].

---

(١) مباحث في اعجاز القرآن مصدر سابق ص٢١-٢٢. وانظر كذلك بداية المعارف الإلهية في شرح عقائد الإمامية ٢ ص٢٤٢.

(٢) المصدر السابق نفسه.

الفارق بين المعجزة وغيرها

❖ الفارق بين المعجزة والسحر

١- من حيث المقدمات إمكان تعلم السحر وتعليمه، ولهذا أمكنت معارضة السحر بخلاف الإعجاز.

٢- من حيث النتائج: كذلك فنتائج السحر محدودة لا يمكن للسحرة تجاوزها.

٣- من حيث الأسباب: للسحر أسباب خاصة عادية ولو كانت خفية أو أنَّه يقوم على الخفة وخداع البصر بخلاف المعجزة، فإنها ليست إلاَّ من ناحيته تعالى، وتقوم على أسباب غيبية واقعية.

٤- من حيث المقارنة: السحر لا يقترن بالتحدي بخلاف المعجزة.

٥- من حيث الغاية والهدف: النبي عندما يأتي بالمعجزة كشاهد على دعواه لإقامة القسط والعدل في المجتمع، ولصنع الإنسان الأفضل الذي يريده الله سبحانه خليفة على الأرض، ولتحقيق أماني الناس

وسعادتهم في الدارين، بخلاف السحرة فإنهم إنما أتوا بما تعلموه، وهو محصور في أمور خاصة يمكن تعلمها ويهدفون من خلالها إلى ضرر الناس، أو خداعهم، أو كسب الشهرة والسمعة، أو المال والثروة... الخ.

٦- من حيث القائم بهما: فالنبي صادق أمين مطّهر عن العيوب والنقائص والساحر صاحب كيد، كما وصفه القرآن وخبيث النفس ولهذا: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۝٦٩﴾ ﴿طه﴾.

٧- من حيث الماهية: فالسحر كما يرى بعض المحققين[1] ليس من الخوارق لأن معنى ظهور الخارق هو أن يظهر أمر لم يُعهد ظهور مثله، وهنا ليس كذلك لأنَّ كل من باشر الأسباب المختصة به ترتب ذلك بطريق جري العادة.

---

(١) التهانوي كشاف اصطلاحات الفنون١ / ٧٣٠.

❖ الفارق بين المعجزة والابتكار العلمي

١- إن سبق النوابغ من العلماء في الحقول العلمية لا يعتبر معجزة، فإذا افترضنا أن شخصاً من العلماء اليوم سبق أنداده، ونجح في اكتشاف الميكروب السرطاني مثلاً والمادة التي تقضي عليه. فهو يستطيع بحكم اكتشافه أن يبرئ مريضاً من السرطان. بينما يعجز عن ذلك جميع العلماء الآخرين. ولكن عمله هذا ليس معجزة لأنه إنما يتحدى جهل العلماء الآخرين بالسرر ليس إلاّ ولا يتحدى القوانين الكونية التي ثبتت بالحس والتجربة. بل هو إنما استطاع أن يبرئ المريض من السرطان على أساس تجربة فذة قام بها في مختبره العلمي فاكتشف قانوناً لم يعرفه غيره حتى الآن، ومن الواضح أن معرفته بالقانون الطبيعي عن طريق التجربة ليست تحدياً للقانون، وإنما تحدى بذلك زملاءه الذين عجزوا عن اكتشاف القانون مثله[1].

---

(١) المدرسة القرآنية ص ٢٨٠ وعلوم القرآن للسيد الحكيم ص ٩٠.

٢- المعجزات تحدث بقدرة الله تعالى وتحدث بأسباب مجهولة تخالف القواعد العلمية والسنن الطبيعية المعروفة. لذلك استحال على البشر فعلها ومحاكاتها، وإليك أمثلة على ذلك:

أ- اخترع العلماء قماشاً واقياً من النار. وهذا أمر غير مستبعد ولا مستغرب لانبثاقه عن مبادئ علمية معروفة بخلاف جعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام.

ب- استطاع الإنسان أن يغوص في الغواصات إلى أعماق البحار. ويمكث أياماً عديدة لكن بقاء «ذو النون» عليه السلام في بطن الحوت وأغوار البحر محروماً من نسيم الهواء عرضة للهضم والتلاشي في جوفه، كما تتلاشى فيه الأغذية والمواد، فهو أمرٌ إعجازي يعجز الإنسان عن إدراك كنهه.

ج- وصول رواد الفضاء للقمر وغيره عبر غزو الفضاء. لكن المعجزة الخارقة هي معراج الرسول ﷺ مجرداً

من جميع الأجهزة والوسائل العلمية إلاّ الوسائل الإلهية المعجزة[1].

---

(١) عقيدتنا في النبوة/ إعداد لجنة الدار: دار الزهراء. بيروت ط١ / ١٩٨٨ ص١٧٠-١٧١ بتصرف. وقال الزرقاني في مناهل العرفان ج١ص٧٧ تحت عنوان دفع الشبهات.

الشبهة الأولى: يقولون أن المعجزات شأنها شأن كثير من المخترعات. فإذا كان فيها طرافة أو دهشة أو عجب فكذلك آثار العلم ومدهشاته فيما نرى ونسمع.

الجواب: الفرق بعيد والبون شاسع بين المعجزة وما جد في العالم من عجائب العلم وروائع الفن وبدائع الاختراع، فالمعجزة ليست لها أسباب معروفة حتى تلتمس ويؤتى بمثلها، أما هذه المخترعات فإن لها أسباباً معروفة عند أصحابها، ويمكن معرفتها لمن لم يعرفها بيسر وسهولة حتى التماسها من طريقها.

ويرى الدكتور حسن عتر أنَّ:

١- المخترعات العلمية ليست خارقة للعادة.

٢- وأنها أمور كسبية لها قوانيها ومبادؤها.

٣- وأي امرئٍ موهوب يقدر على تنمية مواهبه وميوله فيما تنزع إليه من علوم وفنونٍ فيبلغ شوامخ قمم العلم..

لكن تلك المنزلة ليست متوقفة على صدقه وصلاحه وحسن خلقه. «بينات المعجزة الخالدة ص٣٧-٣٨».

❖ الفارق بين المعجزة والكرامة[1].

الكرامة هي: ما يكرم الله أولياءه بما يظهر على أيديهم، وليس من شرطها أن تكون خارقة للعادة، ولا خارجة عن مألوف الناس.

ومن الكرامة الاستقامة والتوفيق إلى طاعة الله، والزيادة في العلم والعمل، وهداية الخلق إلى الحق.

وقد يحدث بعض خوارق للعادات على أيدي الصالحين في بعض الأحوال فيعد ذلك من الكرامات التي تلازم بعض المخلصين لله المتفرغين لعبادته، والذين سلمت فطرهم وزكت نفوسهم، كما وقع للسيدة مريم عليها السلام وقد حكى القرآن عنها أنه: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا

---

(١) هناك خلاف حول كون الكرامة قسماً من الخوارق مستقلاً عن المعجزات/ قال بذلك معظم المتكلمين كالرازي، وبعضهم قال إن الكرامات من جملة معجزات الأنبياء كآية لنبوتهم ونتيجة اعتصام أتباعهم بهم، وقال بذلك الإمام احمد وغيره/ واستصوبه ابن تيمية/ بيانات المعجزة الخالدة ص٣٣-٣٤.

رِزْقًاۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ ﴿آل عمران﴾ ولكن مع ذلك لا يتحدى بها بل الأصل فيها الاخفاء والكتمان لأن الأولياء يستترون من الكرامة، بينما الكتمان يخالف المعجزة لأن إظهارها واجب ليتم بها تبليغ الرسالة.

وهكذا تتميز المعجزة عن كرامة الأولياء بأمرين:

أولاً: اشتهار المعجزة وظهورها على ملأ الناس. وخفاء الكرامة ونزوع صاحبها إلى التستر والكتمان.

ثانياً: اقتران المعجزة بدعوى النبوة، وخلو الكرامة وتجردها من ذلك[١].

---

(١) عقيدتنا في النبوة مصدر سابق ١٦٨–١٦٩.

خلاصة وبيان للمصطلحات:

قال التهانوي[1]:

«الخارق في عرف العلماء هو الأمر الذي يخرق بسبب ظهوره العادة، وهو على الصحيح ينقسم باعتبار ظهوره إلى ستة أقسام.

لأن الخارق إما أن يظهر عن المسلم أو الكافر. والأول إما أن لا يكون مقروناً بكمال العرفان، وهو المعونة أو يكون،وحينئذٍ لا يخلو إما أن يكون ظاهراً من النبي قبل دعواه وهو الإرهاص أو لا وهو الكرامة.

والثاني أعني الظاهر على يد الكافر إما أن يكون موافقاً لدعواه وهو الاستدراج أو لا وهو الإهانة..»

أقول: الأقسام الستة التي ذكرها التهانوي هي حصيلة قسمة حاصرة ثنائية[2] «وهي المرددة بين النفي والإثبات»

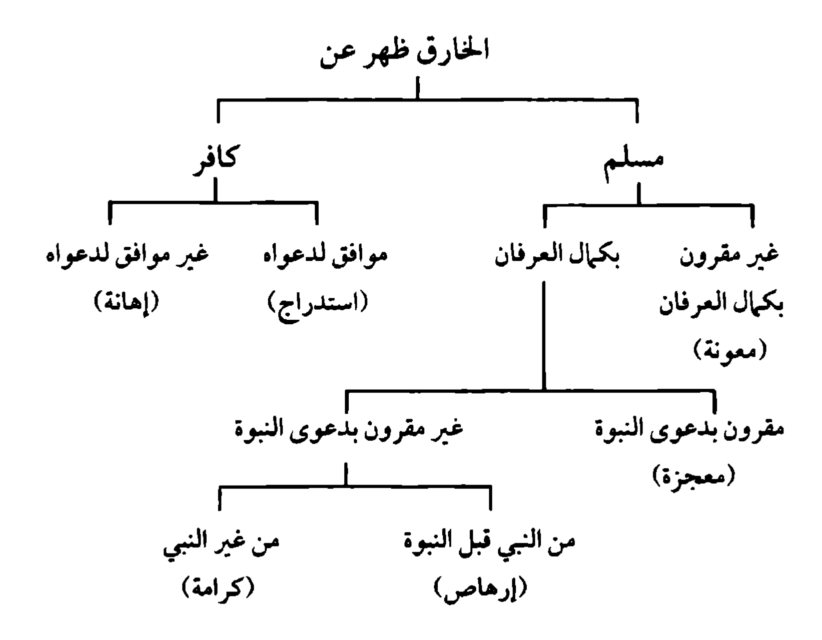
---

(١) إكتشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ١ / ٧٣٠.

(٢) راجع المنطق باب القسمة.

وبما أنَّ الأقسام تزيد على أثنين فهي بلا شك ناتجة عن استمرار القسمة في الأطراف.

ولبيان الأقسام بشكل أوضح إليك المخطط التالي:



الفصل الأول:

بحث حول التسمية بالمعجزة

إنَّ علماء الكلام هم الذين اصطلحوا وأطلقوا اسم المعجزة لأنَّ خصم النبي يعجز عن الإتيان بمثلها مع أنَّه لم يرد في القرآن الكريم ولا السنة إلاَّ لفظ آية وبينة وبرهاناً فقال:

﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

﴿غافر: ٧٨﴾[1]

وقال:

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ ﴿البقرة: ١٨٥﴾.

وقال لموسى:

﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَبِّكَ ﴾ ﴿القصص: ٣٢﴾

---

(١) تعليل الشهيد مطهري لسبب التسمية بالآية أنظر معرفة القرآن ص٢٥٨-٢٥٩.

عن اليد والعصا. ولكنّا سندرج على تسميتها بالمعجزة نظراً لدلالة اللفظ اللغوية ولاشتهاره اصطلاحاً قديماً وحديثاً[1].

يقول الشهيد مطهري: «كلمة معجزة شائعة الاستعمال عند عموم المسلمين، ولعلها كانت مستعملة منذ أيام الأئمة الأطهار عليهم السلام.

ولكن عبارة «خارق العادة» ليست كتلك، ولعل جماعة معينة من المسلمين قد إستعملتها، كالأشاعرة مثلاً، إذ هم كانوا يعتقدون أن المعجزة إن هي إلاّ خرق للعادة». يختار القرآن لفظة أخرى، وهي كلمة «الآية» وهي تبدو أكثر ملاءمة من التعبيرين المذكورين.

فلماذا يعبر القرآن عن المعجزة بكلمة آية؟

---

(١) انظر بينات المعجزة الخالدة، ص٢٠، تأليف د. حسن عتر، دار النصر، ط١ / ١٩٦٥. وبناء على ما ذكر أعلاه فان لفظ الاعجاز في قولنا: «اعجاز القرآن ولفظ المعجزات في قولنا معجزات الأنبياء كلاهما لفظ محدث مولد» مداخل اعجاز القرآن محمود محمد شاكر ص١٩.

إن الآية تعني العلامة، أو الدليل القاطع. وهذا الدليل هو ما يحتاجه رجل يدعي أنه رسول الله، وأن الله قد أرسله، وأنه يوحى إليه، وأن على الناس أن يصدقوه، بدليل أن الذي ينطق به ليس من كلامه، بل من كلام الله. فهل ينبغي على الناس أن يصدقوه بلا جدال؟

هنالك في هذه الحادثة ثلاثة احتمالات:

الأول: هو أن يكون هذا الشخص صادقاً في ادعائه بأنه رسول الله.

الثاني: هو أن يكون كاذباً دجالاً عالماً بكذبه ودجله.

الثالث: هو أن يكون هو نفسه مخدوعاً، كأن تنتابه حالات باطنية أو نفسية تثير فيه انفعالات وإحساسات تتجسد في خياله، فيحسبها وحياً ويؤمن بها أيضاً.

هذا الاحتمال الثالث كثير الوقوع لبعض الناس. فهناك أشخاص لم يكذبوا، ولا يريدون أن يكذبوا، ولكنهم على صدقهم يتوهمون أشياء، وتختلط عليهم الأمور.

إن ما كان يحدو بكفار قريش إلى أن يصفوا الرسول ﷺ بالمجنون، هو أنه كانت له سوابق حسنة بين الناس، بحيث لو أنهم وصفوه بالكذاب لما صدق ذلك أحد، ولذلك كانوا يعمدون في دحض دعوته إلى أن يقولوا للذين آمنوا به، إن هذا الرجل صريع الأوهام والخيالات النفسية.

بناءً على ذلك، ينبغي على من يدعي النبوة أن يثبت ذلك بالدليل القاطع، وإذا ما طالبه الناس بهذا الدليل كان طلبهم معقولاً، وإلاّ فإن قبولهم لدعوة كهذه بدون دليل يعد حماقة[1].

---

(١) معرفة القرآن الشيخ مرتضى المطهري ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

بحث في الجانب التاريخي لإعجاز القرآن

لم يلتفت جمهور العلماء إلى البحث عن وجه الإعجاز والمعجزة القرآنية –بل لم يبرز مصطلح إعجاز القرآن على الساحة– إلاَّ بعد أن نقل عن واصل ابن عطاء المتوفى سنة ١٣١هـ شيخ المعتزلة في البصرة القول بالصرفة، وتابعه على ذلك النظَّام المتوفى سنة ٢٣١ فبدأ العلماء يتعرضون في ثنايا كتبهم لوجه الإعجاز، ويتحدثون عن إعجاز القرآن، ولعلَّ أول من تولَّى الرد على القول بالصرفة هو الجاحظ تلميذ النظَّام، وذلك في بعض كتبه الأدبية كـ«الحيوان» و«البيان والتبيين» كما ألّف كتاباً سماه نظم القرآن لم يصل إلينا، وإنّما بقيت الإشارة إليه من خلال كتاباته وكتابات غيره من الأدباء.

ونَهَجَ الأدباء الذين جاءوا بعد الجاحظ نهجه فألّف أبو داود السجستاني المتوفى سنة ٣١٦هـ كتاباً سمَّاه «نظم القرآن»، وكذلك أبو زيد البلخي المتوفى سنة ٣٢٢هـ ألّف

«نظم القرآن» وكذلك فعل ابن الأخشيد المعتزلّي المتوفى سنة ٣٢٦هـ.

وهكذا جاء ابن قتيبة الدينوري المتوفى سنة ٢٧٦ في كتابه «تأويل مشكل القرآن» فقد تصدّى للطاعنين في القرآن والمنكرين لإعجازه[١].

ويرى الدكتور جمال العمري في كتابه: «مفهوم الإعجاز القرآني حتى القرن السادس الهجري» أنَّ الجانب التاريخي لمسألة الإعجاز ينبغي أن يقف عند حدود القرن السادس الهجري، لأنَّ هذه الفترة الزمنية هي التي شهدت مرحلة النشأة والتطور وقمة الإبداع والازدهار لهذه القضية، ثم مرحلة التوقف والجمود، وكان علماء هذه الفترة هم المصدر والمرجع لجميع الباحثين والدارسين في العصور اللاحقة، بل إنَّ معظم علماء العصور التالية كانوا عالةً عليهم ناقلين عنهم آخذين لآرائهم.. فعلماء القرن

---

(١) مباحث في اعجاز القرآن للدكتور مصطفى مسلم ٤٦ ـ ٤٨ بتصرف.

السابع وما يليه كانوا نقلة، مهذبين، مختصرين، شارحين محللين لكل ما طرح على بساط البحث.

وقد قام هذا الباحث بدراسة مقالة الصرفة للنظّام ورد كل من الجاحظ المعتزلي وإبن قتيبة عليها، ثم انتقل لدراسة مفهوم الخطّابي للإعجاز القرآني[1].

ثم مفهوم الرَّماني المعتزلي «٢٩٦–٣٨١هـ» للإعجاز القرآني في كتابه: النكت في إعجاز القرآن، الذي يظهر في مقدمته أنَّه كان جوابه لسؤال وجّه للرماني، ومن أهم أفكاره، أنَّ جعل الصرفة وجهاً من وجوه إعجاز القرآن، والقول بنفي السجع من القرآن حيث قال: «الفواصل بلاغة، والأسجاع عيب».

ثم تعرض لمفهوم الباقلاني «٤٠٣هـ» للإعجاز في كتابه «إعجاز القرآن» وأفاض القول في إبطال الصرفة، وذكر ثلاثةً من وجوه إعجاز القرآن وهي:

---

(١) سيأتي في فصلٍ لاحق تحقيق الحال حول رأي الجاحظ الأخير.

١ - الإخبار عن الغيوب.

٢ - الإنباء عن قصص الأولين وسير المتقدمين.

٣ - براعة النظم والتأليف والرصف، وأغلب هذه الوجوه متعلق بالإعجاز البياني، كما أنَّه نفى السجع والشعر عن القرآن.

ثم مفهوم القاضي عبد الجبار «٤١٥هـ» المعتزلي للإعجاز، والذي لم يكتب كتاباً مستقلاً في الإعجاز القرآني، لكن في كتابه المغني جزءاً خاصاً لهذا الموضوع، وقد اهتم بجزالة اللفظ وحسن المعنى والنظم.

ثم مفهوم الجرجاني «ت٤٧١هـ» للإعجاز وله ثلاثة كتب في الإعجاز هي:

١ - أسرار البلاغة.

٢ - دلائل الإعجاز.

٣ - الرسالة الشافية.

والجرجاني كأنّه شعر ان السابقين اقتصروا على الجانب اللفظي، فحصر جهده على إبراز المعاني.

ثم مفهوم القاضي عياض «٤٩٦–٥٤٤» للإعجاز:

حيث يعدّ آخر الفترة الزمنية التي وصلت إليها حركة الإبداع العلمي برأي الدكتور العمري حيث يقول:

وما كان القاضي عياض إلاّ جامعاً، ناقلاً، مختصراً، مهذباً، لم يضفِ جديداً.

أقول:

١- كان ينبغي على كلّ من الدكتور مصطفى مسلم وأحمد العمري تناول الاتجاه الشيعي في الجانب التاريخي، حيث يلحظ الباحث إغفالهما لمتكلمي، ومفسري الشيعة الأوائل كالشيخ الطوسي، والسيد الشريف المرتضى وغيرهما، خاصة عند مناقشة مسألة الصرفة، كما سيأتي بيانه في الفصول اللاحقة.

٢- توصيف الدكتور العمري لما بعد القرن السادس بمرحلة التوقف والجمود والاعتماد على الأوائل، هو نعت غير دقيق، خاصة أنَّه اقتصر كشاهد على ذلك على دراسة لتفسير الآلوسي «ت١٢٧٠هـ»، ومفهوم الإعجاز القرآني عند الرافعي «ت١٩٣٧م».

ثم مفهوم الإعجاز القرآني عند عبد الكريم الخطيب، وأخيراً مفهوم الإعجاز القرآني عند الدكتور مصطفى محمود، فهو لم يتطرق في هذا الفصل مثلاً لما كتبه سيد قطب، إن كان في تفسيره «في ظلال القرآن»، أو في «التصوير الفني في القرآن»، أو كتابه الآخر «مشاهد القيامة في القرآن» أو لما كتبه الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه النبأ العظيم، أو لما كتبته الدكتورة عائشة عبد الرحمن في «الإعجاز البياني للقرآن» ولما كتبه علماء الشيعة المعاصرون كالسيد الخوئي، والسيد العلامة الطباطبائي والشهيد السيد محمد باقر الصدر وغيرهم.

٣- وانطلاقاً من مقولة «كم ترك الأول للآخر»، فإنَّ المتأخرين وإن استفادوا من الأولين. وهذه هي سنة الحياة، وفلسفة العلم والأبتسمولوجيا» لكن هذا لا يقلّل من أهمية بحوثهم في معالجة الآراء ومقارنتها ومناقشتها وترجيح بعضها على بعض، كما اعترف هو نفسه عند الكلام عن الآلوسي.

وهذا مبحث جديد لم أجد –فيما بين يدي من مصادر ومراجع– من تطرق له خلا إشارة من ثلاثة مفكرين هم الشهيد مرتضى مطهري في كتابه «الوحي والنبوة»، وكتاب «المرسل والرسول والرسالة» للشهيد السيد محمد باقر الصدر ومالك بن نبي في كتابه «الظاهرة القرآنية».

أولاً: الشهيد مرتضى مطهري:

حيث قال[1]: «إنَّ القرآن معجز من جوانبه المختلفة أي أنَّه ما فوق البشر، ونشير هنا بإيجاز إلى أنَّ إعجاز القرآن بصورة عامة من جهتين لفظي ومعنوي.

ويقترح الشهيد مطهري لدراسة الجانب العلمي الفكري أن تكون الدراسة على طريقة التفسير الموضوعي فمثلاً مسألة التوحيد: نأخذ محتويات القرآن حيال التوحيد ونقارنها بالتوحيد الذي كان مألوفاً في جزيرة العرب آنئذٍ بما

---

(١) الوحي والنبوة ص٦٥

والنبوة ٣٤٩ـ ٣٥٠.

كان سائداً ومألوفاً في العالم برمته من دون استثناء، حتى بما كان سائداً في اليونان والروم، حيث كانت لهم السبقة يومذاك على جميع المناطق الأخرى في هذا المضمار، ثم نقارن.. فإذا ما وصلنا في هذه المسألة إلى أن بيان القرآن في التوحيد ليس فوق بيئته «فحسب» بل هو فوق عصره، بل ومتقدم على الأزمنة حتى يومنا هذا فعندئذٍ سيكون ذلك إعجازاً إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّه صدر من رجل عربي أمّي.

أقول: ما طرحه الشهيد مطهري يتقاطع بشكل كبير مع رأي الشهيد السيد محمد باقر الصدر في التفسير الموضوعي، وهو طرح الواقع على القرآن لاستنطاقه عبر جلسة تفاعلية إيجابية، وكذلك مع ما طرحه أيضاً الشهيد الصدر في مقدمة الفتاوى الواضحة «بحث الرسول والمرسل والرسالة» عبر إثبات الإعجاز من خلال قانون الاحتمال، وخصوصيات المجتمع العربي آنذاك وشخصية الرسول الأعظم ﷺ.

وقد قام الشهيد مطهري بدراسة التوحيد موضوعياً كما اقترح في كتابه «النبوة» من ص٤٠١-٤٣٣.

ثانيا المنهج الصدري في بحث الإعجاز القرآني،

كما أسلفنا فهناك تقاطع في النظر إلى بحث الإعجاز القرآني عند المفكرين الشهيدين العظيمين مطهري والصدر، وها نحن نعرض رؤية الشهيد الصدر في كلّ من «المدرسة القرآنية» و«الرسول والمرسل والرسالة».

قال ﺗﺪﺱ ﺳﺮﻩ : «وما دمنا قد عرفنا أنَّ المعجزة، هي أن يحدث النبي تغييراً في الكون يتحدى به القوانين الطبيعية، فمن الميسور أن نطبق فكرتنا هذه عن المعجزة على القرآن الكريم، الذي أحدث تغييراً هائلاً وثورة كبرى في حياة الإنسان لا تتفق مع المألوف والمجرب من القوانين الكونية للمجتمع.

فنحن إذا درسنا الوضع العالمي والوضع العربي والحجازي بصورة خاصة، وحياة النبي قبل البعثة ومختلف العوامل والمؤثرات التي كانت متوفرة في بيئته ومحيطه، ثم

قارنا ذلك بما جاء به الكتاب الكريم من رسالة عظمى تتحدى كل تلك العوامل والمؤثرات، وما أحدثه هذا الكتاب من تغيير شامل[1] وكامل.

وتبعاً لأمة تملك أعظم المقومات والمؤهلات إذا لاحظنا كل ذلك وجدنا أنَّ القرآن معجزة كبرى.

١- اختبار البيئة والمجتمع كان هو التحدي الأول للقوانين الطبيعية التي تقتضي أن تولد الثقافة الجديدة في أرقى البيئات من الناحية الفكرية والاجتماعية.

في حين كانت الجزيرة العربية ومكة خاصة أكثر المناطق تأخراً وبدائية، بحيث لم تمارس أيّ لون من ألوان الحضارة والمدنية وكانت بعيدة عن التيارات الفلسفية والعلمية.

---

(١) يرجعها الشهيد الصدر إلى ثلاثة أبعاد:

أ- تحرير القرآن للإنسان من الوثنية «وتنزله عن كرامة الإنسانية لعبادة الحجر».

ب- تحرير القرآن للعقول «من الأساطير والخرافات وتقليد الآباء»، وحث القرآن على التفكير والعلم.

ج- تحرير القرآن للإنسان من عبودية الشهوة، انظر المدرسة القرآنية من ص٢٣٧-٢٤٦، وعلوم القرآن للسيد الحكيم من ص٦٩-٧٧.

٢- التحدي يصاحب المعجزة، وهو أمّي لم يشارك حتى ثقافة مجتمعه بالرغم من بساطتها «العنكبوت / ٤٨، يونس / ١٦».

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ﴿العنكبوت﴾.

﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ ﴿يونس﴾.

٣- تحدي القرآن للغيب في الماضي بعرضه لقصص الأنبياء ناصعة بخلاف العهد القديم والمستقبل المجهول[١].

وقال في الرسول والمرسل والرسالة[٢]: تثبت نبوة محمد ﷺ بالدليل العلمي الاستقرائي، وتتلخص عملية الاستدلال في أنَّ كلما لوحظت ظاهرة معينة ضمن عوامل

---

(١) المدرسة القرآنية من ص٢٨١-٢٨٧ بتصرف وكذلك علوم القرآن للسيد محمد باقر الحكيم.

(٢) أنظر مقدمة الفتاوى للسيد الشهيد الصدر من ص ٩١-٩٦.

وظروف محسوسة ولوحظ استقرائياً أنَّ هذه العوامل والظروف والمحسوسة في الحالات المماثلة لا تؤدي إلى نفس الظاهرة، فيدل ذلك على وجود عامل آخر غير منظور لابدَّ من افتراضه لتفسير تلك الظاهرة، وبكلمة أخرى إنَّ النتيجة إذا جاءت أكبر من الظروف والعوامل المحسوسة –بحكم الاستقراء للحالات المماثلة– كشفت عن وجود شيء غير منظور وراء تلك الظروف والعوامل المحسوسة».

ثم يستعرض السيد الشهيد كما فعل في المدرسة القرآنية الأدلة على ذلك من واقع الجزيرة العربية وشخص النبيﷺ، وخصوصيات الرسالة التي جاء بها، وعظمة القرآن وتحديه ليخلص السيد الشهيد إلى أنَّ الاستقراء العلمي في تاريخ المجتمعات يبرز هنا فرقاً هائلاً، والتفسير المعقول والوحيد هو افتراض عامل إضافي وراء الظروف والعوامل المحسوسة وهو عامل الوحي.

التقارب بين

منهج صاحب الميزان والشهيد الصدر

لاحظنا الشبه بين أسلوبي مطهري والصدر وهاهنا ثمّة تشابه آخر هو ما نراه بين صاحب تفسير الميزان العلاّمة السيد محمد حسين الطباطبائي والشهيد الصدر حيث قال السيد العلاّمة[1] :

«هل يمكن أن يصدر هذا الإحصاء العجيب والإتقان الغريب في رجل أمي لم يتربَّ إلاَّ في حجر قوم حظهم من الإنسانية على مزاياها التي لا تحصى وكمالاتها التي لا تغيَّا أن يرتزقوا بالغارات والغزوات ونهب الأموال، وأن يئدوا البنات ويقتلوا الأولاد خشية إملاق.. وهل يجترئ عاقل على أن يأتي بكتاب يدعيه هدى للعالمين، ثم يودعه أخباراً في الغيب، مما مضى ويستقبل، وفيمن خلت من الأمم.. ثم لا يختلف شيء منها عن صراط الصدق.

---

(١) الميزان: ج١، ص٥٩ وما بعدها.

وهل يتمكن إنسان وهو أحد أجزاء الطبيعة المادية والدار دار التحول والتكامل أن يدخل في كل شأن من شؤون العالم الإنساني ويلقي إلى الدنيا معارف وعلوماً وقوانين وحكماً ومواعظ وأمثالاً وقصصاً في كل ما دق وجل، ثم لا يختلف حاله في شيء منها في الكمال والنقص، وهي متدرجة الوجود متفرق الإلقاء.. هذا مع ما نراه أنَّ كل إنسان لا يبقى من حيث كمال العمل ونقصه على حال واحدة. فالإنسان اللبيب القادر على تعقل هذه المعاني لا يشك في أنَّ هذه المزايا الكلية وغيرها مما يشتمل عليه القرآن الشريف كلها فوق القوة البشرية ووراء الطبيعة المادية..

ثالثاً: المنهج عند مالك بن نبي والتشابه مع الشهيد الصدر:

اعتمد المفكر الإسلامي الجزائري مالك بن نبي رحمه الله في كتابه الظاهرة القرآنية منهجاً تحليلياً جديداً في تفسير القرآن يقوم على:

١ - دراسة الظواهر «الفنومنولوجيا».
٢ - طرق التحليل النفسي[1].

وهذا المنهج بنظره يحقق من الناحية العلمية هدفاً مزدوجاً هو:

أ- أنّه يتيح للشباب المسلم فرصة التأمل الناضج في الدين.

---

(١) هذا المنهج هو أثر للدراسة الأكاديمية التي نالها مالك بن نبي في باريس وقد تشابه منهج الدكتور محمد عبد الله دراز مع منهج مالك بن نبي هذا في كتابه «النبأ العظيم».

ب- وأنّه يقترح إصلاحاً مناسباً للمنهج القديم في تفسير القرآن[1]، وبتطبيق منهجه على حياة النبي ﷺ إلى مرحلتين قبل البعثة، وهو يمتد إلى أربعين سنة «تشمل طفولته ويتمه واعتزاله للعبادة، وتسميته بالصادق الأمين»، والثانية العصر القرآني الممتد ثلاثاً وعشرين سنة بعهديه المكي «وما فيه من مِحنٍ وآلام وتآمر قومه عليه، وفقده لأحبته خديجة وأبي طالب» والمدني. ليحلل فيما بعد ظاهرة الوحي انطلاقاً من حقيقة نفسية غفل عنها الباحثون، وهي مسألة اقتناع النبي الشخصي، فمن الواضح أن انفراد النبي بكونه الشاهد الوحيد المباشر على الظاهرة يخلع على هذه الحقيقة قيمة استثنائية خاصة[2].

والنبي كما يقول مالك بن نبي بحاجة إلى التثبت من مقياسين يدعم بهما اقتناعه:

---

(١) الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي، ص٥٣.

(٢) الظاهرة القرآنية، ص١٤٧-١٤٨.

١- مقياس ظاهري للتحقق من وقع الظاهرة[1].

٢- مقياسه العقلي: إنَّ «محمداً» أمي ليس لديه من معرفة البشر سوى ما يمكن أن يمنحه له وسطه الذي ولد فيه، وفي هذا الوسط الفروسي الوثني البدوي لا مجال مطلقاً للمشكلات الاجتماعية والغيبية «الميتافيزيقية» فإنَّ معارف العرب عن الحياة الاجتماعية والفكرية لدى الشعوب الأخرى ليست بذات قيمة إذا ما رجعنا إلى الشعر الجاهلي[2].

ويرى مالك بن نبي أنّ الرسول ﷺ انتقل من شك منهجي، وهي مرحلة التعبد والتفكير في الغار إلى اليقين[3].

---

(١) الظاهرة القرآنية، ص١٥٤-١٥٥.

(٢) انظر الظاهرة القرآنية من ص١٥٦-١٦٠.

(٣) يستدل مالك هنا برواية اسراع النبي من الغار بعد نزول جبرائيل عليه إلى زوجته خديجة وتجربتها التي قامت بها بإلقاء الخمار.. والرواية غير مقبولة على الصعيد الشيعي راجع الصحيح من سيرة النبي الأعظم للسيد جعفر مرتضى العاملي.

ثم عمد مالك إلى دراسة تاريخ الوحدانية والمقارنة بمثال واحد وهو قصة يوسف ﷺ في القرآن مع قصة العهد القديم ليعالج بعدها إشكالين هما:

الأول: وجود تأثير يهودي مسيحي في الوسط الجاهلي والطريقة التي تسنّى لهذا التأثير أن يبرز في الظاهرة القرآنية.

الثاني: تعلم النبي الشخصي يشكل منهجاً شعورياً مباشراً أو تعلمه، ثم الاستخدام اللاشعوري للمادة التي حصلت في يده. والفرض الأول تبطله نتائج جميع الأبحاث التي أجريت للكشف عن هذا التأثير في البيئة العربية قبل الإسلام، ويبطله أيضاً الصورة التي يعطيها أدب هذه البيئة عن أميتها وعدم وجود أي ترجمة عربية للإنجيل قبل القرن الرابع الهجري.

وأما الفرض الثاني فيقول مالك إنَّ اللاشعور معناه النسيان، وهو لا تتفق مع ذاكرته السمعية البصرية الخارقة طوال حياته.

النسيان الذي يجب أن يعد هنا جزئياً لأنَّه لا يشمل كل الماضي الشعوري للنبي بل يقتصر على تذكر مصدر تعلمه الكتب وطريقته في أن يستخدمها لا شعورياً.. من أجل هذا كله نجد أنفسنا مجبرين أمام حالة نسيان مرضي وأمام حالة «لا شعور جزئي» لا يشرحها علم النفس حتى ولو فرضنا أنَّ حالة كهذه كانت متوافقة –من ناحية أخرى– مع سائر خصائص الظاهرة القرآنية، أمَّا من الناحية التاريخية فإذا كان هذا المصدر الأجنبي قد وجد لتعليم النبي فإنَّه لن يكون سوى مصدر شفهي غير مكتوب لكي يكون في متناول أمي، وربما كان هناك في هذه الحالة «ملقنٌ» ما يهمس دائماً إليه –دون علمه– بكل ما يتصل بدعوته، وإنَّ الطابع الخاطئ لافتراض كهذا ليقف في مواجهة واقعين لا يقبلان المناقشة هما القيمة القرآنية وقيمة الذات المحمدية وهكذا ينتهي بنا الفرض إلى تناقض تاريخي ونفسي.

نتائج حول منهجية البحث

بعد استعراض كلام كل من الشهيد مطهري والشهيد الصدر والسيد العلامة الطباطبائي والأستاذ مالك بن نبي نجد اشتراكاً في:

١- الحداثة في المنهجية: فقد سادت مسألة الإعجاز البلاغي والمقارنة مع الشعر العربي عند الباحثين قروناً طويلة.

٢- اعتماد العلوم الحديثة وتوظيفها في الحقل القرآني: فالمطهري اعتمد علم الجمال والإعجاز العلمي، والصدر على الأسس المنطقية للاستقراء وقانون الاحتمال، والطباطبائي قريب من ذلك. أمَّا مالك بن نبي فاعتمد الفنومنولوجيا «الظواهرية»[1] والتحليل النفسي السلوكي[1].

(١) مدرسة فلسفية أسَّسها أدموند هوسرل «١٨٥٩–١٩٣٨» والظواهرية لا تعني بما عندنا من النظريات والآراء السابقة والمتعلقة بها والتي كانت خافية

٣- علاج للشبهات: فمنهجية هؤلاء العلماء تصدت لشبهات المستشرقين كشبهة الوحي النفساني، والنبوغ الذاتي، أو شبهة الاقتباس من تراث أهل الكتاب، أو التعلم على أيديهم.

٤- الهم المشترك والهدف المنشود: وهو نهضة المسلمين وبعث حضارتهم من جديد في القرن الماضي أي القرن العشرين، وإحياء الفكر الإسلامي من جديد.

علينا ولم يكن لها ظهور سافِر من قبل/ المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، د. عبد المنعم الحنفي، ص٦١٣..

(١) مدرسة في علم النفس، الطبيب النمساوي فرويد ركزت على مسألة اللاشعور والأنا والأنا الأعلى، المصدر السابق » المنجد في الإعلام.

الحاجة إلى المعجزة

أ- **حاجة النبي إلى المعجزة:** من المعلوم أنَّ حاجة البشر إلى الهداية الإلهية ضرورة فطرية وحياتية تستلزمها طبيعة الإنسان واستعداده الخَلقي وما أنيط به من دور في هذه الحياة.

وهذه الهداية واجبة[1] على الله تعالى وذلك:

١- لعلم الله تعالى بحاجة الإنسان إليها، فعدم علمه بها جهل يتنزه عنها ربّ العالمين.

٢- لكرم الله ولطفه ورحمته —وقد كتب على نفسه الرحمة— فالبخل بها مع حاجة الناس إليها نقص ممتنع عنه سبحانه وتعالى.

---

(١) معنى الوجوب على الله هو ما تقتضيه حكمته تعالى وصفاته العليا وأسماؤه الحسنى، فهو ما يكتشفه العقل دون أن يكون هناك إلزام من الغير له تعالى، بل يستحيل أن يكون له إلزام لأنه خلف معنى كونه واجب الوجود، وعلة العلل، فهذا الوجوب وجوب عنه لا عليه، كما قال الشيخ الرئيس ابن سينا.

٣- لقدرة الله تعالى على هداية الناس، إذ العجز نقص يستحيل على العلي القدير[1].

إذاً فالهداية واجبة في الحكمة الإلهية، تتطلب مبلّغاً يؤدّيها إلى الناس وهو النبي، كل دعوى تحْتاج إلى دليل، المعجزة تصدّق النبي وتكذّب زيف مدعي النبوة غيره.

ب- **حاجة الناس إلى المعجزة:** إنَّ من لوازم النبوة بالنسبة للناس –تكليفهم بأمور من التزامات بأحكام وعقائد، وترك لأعراف وعادات، وهذا يتطلب إيمانهم طوعاً وقناعة لا قهراً –إذ لا إكراه في الدين.

فاستجابة الناس لا تتم إلاّ بأمر خارق لنواميس الطبيعة وهو المعجزة قال سبحانه:

﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ① ﴾ ﴿إبراهيم﴾.

---

(١) موجز علوم القرآن، ص٥١.

فأخبر عز وجل أنَّ المقصد الأساس للقرآن هداية الناس، ولا يكون ذلك إلاَّ وهو حجة، ولا يكون حجة على الناس ما لم يكن معجزة[1].

وبالجملة فالدليل على لزوم إقامة المعجزة، وتعريف النبي والرسول هو الدليل على لزوم إرسال الرسل، إذ لو لم تقم المعجزة لا تتم الحجة ولما تمكن الناس من معرفة ما يحتاجون من المصالح والمفاسد، مع أنَّه لازم، أو واجب في عنايته الأولى وحكمته الكبرى[2].

وبعبارة أخرى وأخيرة: ليس المقصود بالمعجزة إثبات العجز للخلق لذاته من غير ترتيب مطلب على هذا العجز، بل المقصود ولازم هذا العجز وهو إقامة الحجة على أنَّ الادعاء حق وأنَّ الرسول الذي جاء به رسول صدق[3].

---

(١) موجز علوم القرآن، سابق ص٥٢ بتصرف.

(٢) بداية المعارف الإلهية في شرح عقائد الإمامية ١ / ٢٤٦. ويمكن القول بكلمة واحدة، إنَّ الحاجة للمعجزة في الفرعين –النبي والناس– ناشئة فيما اصطلح عليه في علم الكلام باللطف.

(٣) مباحث في إعجاز القرآن، ص٢٣.



المعجزة وقانون العلية

مقدمة:

إنَّ قانون العلية ثابت بمقتضى :

أ- ضرورة العقل.

ب- تصديق القرآن له.

ج- اعتماد الأبحاث العلمية والعلوم الطبيعية عليه.

د- توقف صحة الأنظار الاستدلالية والبرهانية عليه.

ه- فطرة الإنسان على الاعتقاد أنَّ لكل حادث مادي علة موجبة[1].

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، هل المعجزة تشكل خرقاً، أو استثناءً، أو إلغاءً أو نقصاً لهذا المبدأ؟

والجواب :

١- إنَّ المعجزة لا تعني وقوع أمر بغير سبب لأنَّ لازمه عدم إمكان إثبات أي شيء في العالم، ولن يبقى أي

---

(١) تفسير الميزان، ج١، ص٤٧ بتصرف.

قانون علمي أو طبيعي، ولا شيء من الفلسفة وعلم الكلام، بل سوف يتزلزل حتى إثبات وجود الله، لأنّنا لن نستطيع رد قول القائلين بأنَّ العالم قد وجد بطريق المصادفة وبدون علة[1].

نعم كون المعجزة معلولاً بلا علة شيء، وكونها معلول لعلة غير مادية وغير معروفة للناس والعلم شيء آخر، والباطل هو الأول، ونفي الخاص لا يكون دليلاً على نفي العام[2].

٢- وليست المعجزة تعني استبدال علة بعلة أخرى.

وهذا الفرض أيضاً باطل فلسفياً، لأنَّ الشيء الواحد لا يكون معلولاً لعلتين، فبين العلة والمعلول رابط واقعي وحقيقي، فقانون العلية ليس عقداً تعاقدياً، أو اعتبارياً، أو وضعياً، إنما هو حقيقة واقعية لا تخلف فيها.

---

(١) معرفة القرآن، ص٢٦١.
(٢) الإلهيات ٢/ ٣٧.

٣- فالصحيح أنَّ المعجزة هي خرق لقوانين الطبيعة، وليست خرقاً لقانون العلية، والمعجزة هي خروج أمر عن المجرى العادي إلى الحد الذي يظهر فيه تدخل ما وراء الطبيعة ظهوراً واضحاً.

أمَّا كيفية ذلك فنقول بأنَّه عن طريق حكومة قانون على آخر، ولبيان هذا المعنى تأمل في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ ﴿الطلاق﴾.

فصدر الآية الكريمة يقول: إنَّه لا مانع، ولا رادع لأمر الله، فكل من توكل على الله واتقاه فهو سبحانه حسبه فيه، وهو كائن لا محالة، وإن كانت الأسباب العادية المحسوبة عندنا تقضي بخلافه.

إلاَّ أنَّ تكملة الآية المباركة: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ ﴿الطلاق﴾ تدل على أنَّ الله سبحانه يوجد كل

شيء على قدره وبقدره عن طريقه المعلوم، فالآية تدل على أنَّه جعل بين الأشياء جميعها ارتباطات واتصالات له أن يبلغ إلى كل ما يريد من أي وجه شاء، وليس هذا نفياً للعلية والسببية بين الأشياء، بل إثبات أنَّها بيد الله سبحانه على ما يعلمه الله تعالى وينظمه.

ومن هنا يستنتج أنَّ الأسباب العادية التي ربما يقع التخلف بينها وبين مسبباتها ليست بأسباب حقيقية، بل هناك أسباب حقيقية مطردة غير متخلفة الأحكام والخواص[1].

---

(١) انظر تفسير الميزان، ج١، ص٧٦-٧٨ والنبوة ص٢٢-٢٢٦.

المعجزة من الممكنات لا المحالات.

إنَّ المعجزة –كما تقدم– وإن كانت أمراً خارقاً للعادة في عالم الطبيعة لكنَّها :

١- ليست أمراً مستحيلاً بالذات، بحيث يبطلها العقل الضروري كاجتماع النقيضين أو ارتفاعهما، ولو كانت المعجزات ممتنعة بالذات لم يقبلها عقل عاقل، ولم يستدل بها على شيء ولم ينسبها أحد إلى أحد.

٢- بل ليست المعجزة مما تنكره عادة الطبيعة، بل هي مما يتعاوره[1] نظام المادة كل حين بتبديل الحي إلى ميت والميت إلى حي، وتحويل صورة إلى صورة وحادثة إلى حادثة، ورخاء إلى بلاء، وبلاء إلى رخاء، وإنَّما الفرق بين صنع العادة وبين المعجزة الخارقة، هو أنَّ الأسباب المادية المشهورة التي بين أيدينا إنما تؤثر أثرها

---

(١) عاوره الشيء أعطاه إياه عارية، اعتوروا الشيء تداولوه فيما بينهم / المعجم الوسيط.

مع روابط مخصوصة وشرائط زمانية ومكانية خاصة تقضي بالتدريج في التأثير.

مثلاً العصا وإن أمكن أن تصير حية تسعى، والجسد البالي وإن أمكن أن يصير إنساناً حياً، لكن ذلك إنما يتحقق في العادة بعلل خاصة وشرائط زمانية ومكانية مخصوصة، وبهذا تخرق المعجزة قوانين الطبيعة أي عبر طيّ المراحل والشرائط.

كيف تثبت المعجزة صدق صاحبها؟

قسم المناطقة الدلالة إلى ثلاثة أقسام:

١- وضعية تنشأ من التواضع والاصطلاح كدلالة الألفاظ على المعاني، ودلالة إشارات المرور على مدلولاتها، وهنا لا توجد رابطة ذاتية بين الدال مع المدلول، فلفظ الخبز دلَّ بالوضع اللغوي على الشيء الخاص المأكول، والماء على ما نشربه من سائل محدد، والضوء الأخضر على السماح بالعبور مثلاً، ولو فرضنا استبدلت هذه الدلالات بدلالات أخرى كما في اختلاف اللغات لتمت الدلالة أيضاً، ولهذا قال المناطقة عن الدلالة الوضعية بأنها وليدة الوضع والاتفاق والاعتبار من غير وجود علاقة ذاتية بين الدال وبين المدلول أي بين اللفظ وبين المعنى.

٢- الدلالة الطبيعية كدلالة السعال على ألم الصدر وسرعة النبض على الحمى، واقتضاء طبع الناس أن

يقولوا «آه» عند الألم وأف عند الضجر ومن الواضح أنَّ دلالـة المعجـزة علـى صـدق صـاحبها ليـست مـن القسمين السابقين.

٣- الدلالة العقلية وهـي فيمـا إذا كـان بـين الـدال والمدلول ملازمة ذاتية، وذلك كدلالة المعلول على العلة.

ودلالـة المعجـزة هـي مـن هـذا القـسم. فهـي دلالـة عقليـة برهانيـة منطقيـة، بحيـث يـستلزم وجـود الأولى «المعجـزة» وجود الثانية معهـا «صـدق المـدعي» وليـست دلالـة إقناعيـة كالأدلة الخطابية التي تُساق لمجرد إقناع الجمهور.

ولكن دلالة المعجزة متوقفة على القول بـأنَّ العقـل يحكـم بالحسن والقـبح، أمـا الأشـاعرة الـذي ينكـرون هـذا القـول فلابـدَّ لهـم مـن سـدّ بـاب التـصديق بـالنبوة لأنَّ لازم قـولهم عدم قبح أن تظهر المعجزة على يد الكاذب.

وقد أجاب «الفضل بن روزبهان» عن هذا الإشكال بأن فعل القبيح وإن كان ممكناً على الله تعالى لكن عادة الله أجرت على تخصيص المعجزة بالصادق.

وقد ردَّ المحقق السيد الخوئي كلام ابن روزبهان هذا بعدة ردود:

١- إنَّ عادة الله التي يخبر عنها «ابن روزبهان» ليست من الأمور التي تدرك بالحس، فينحصر طريق العلم بها بالعقل، وإذا امتنع على العقل أن يحكم بالحسن والقبح -كما يراه الأشعري- لم يمكن لأحد أن يعلم باستقرار هذه العادة لله تعالى.

٢- إنَّ إثبات هذه العادة يتوقف على تصديق الأنبياء السابقين الذين جاءوا بالمعجزات حتى نعلم أنَّ عادة الله قد استقرت على تخصيص المعجزة بالصادق، أمَّا المنكرون أو المشككون في النبوات فلا طريق لهم لإثبات هذه العادة فلا تقوم عليهم الحجة بالمعجزة.

٣- إذا تساوى الفعل والترك في نظر العقل ولم يحكم في ذلك بقبح ولا حسن فأي مانع يمنع الله أن يغير عادته؟ وهو القادر المطلق الذي لا يسأل عما يفعل، فيظهر المعجزة على يد الكاذب.

٤- إنَّ العادة من الأمور الحادثة التي تحصل من تكرر العمل، وهو يحتاج إلى مضي زمان، وعلى هذا فما هي الحجة على ثبوت النبوة الأولى الثابتة قبل أن تستقر هذه العادة[1].

---

(١) البيان، ص٣٦-٣٧ بتصرف.

هل يشترط في المعجزة المناسبة لما اشتهر في عصرها؟

قال الشيخ المجدد محمد رضا المظفر[1]: « إنَّ معجزة كل نبي تناسب ما يشتهر في عصره من العلوم والفنون، فكانت معجزة موسى عليه السلام هي العصا التي تلقف السحر وما يأفكون، وكذلك كانت معجزة عيسى عليه السلام وهي إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، إذ جاءت في وقت كان علم الطب هو السائد بين الناس فعجز الأطباء عن مجاراة ما جاء به عيسى عليه السلام، ومعجزة نبيّنا الخالدة هي القرآن الكريم المعجز في بلاغته وفصاحته، في وقت كان فن البلاغة معروفاً، فعجزوا عن مجاراته وقاوموه بالسنان دون اللسان ».

وإلى هذا ذهب المحقق السبحاني بأن أصدق المعجزات ما شابه أرقى فنون العصر، ولذلك فالعلماء أسرع تصديقاً بالمعجز من غيرهم، وهذا هو رأي السيد الخوئي[2] وهو

---

(١) عقائد الإمامية بتصرف.

(٢) الإلهيات، ج٢، ص٢٣٦، والبيان في تفسير القرآن، ص٣٧.

قول ابن عطية من مفسري العامة كما نقل ذلك[1]، ويشهد لذلك رواية الكليني عن سؤال الأديب ابن السكيت للإمام الرضا عليه السلام عن سبب اختلاف معجزات موسى وعيسى ومحمد «صلوات الله عليهم» فأجابه الإمام بأن الله أتى كلّ واحد من هؤلاء الأنبياء بما يثبت الحجة على أهل عصره من خلال ما هو غالب في عصرهم[2] فقال ابن السكيت: «**تالله ما رأيت مثلك قط**».

وبعد هذا فمن الغريب إشكال بعض العلماء على هذا، حيث قال ما نصه: «إنّا لا نعلم بوجود المعجزة لكلّ نبي لاحتمال أن يكون التعريف في بعض الأنبياء بالبشارة أو التنصيص».

لا يقال: إن مقتضى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ ﴿الحديد: ٢٥﴾.

---

(١) الإتقان، ص٧١٤، تحقيق فواز أحمد أزمرلي.
(٢) انظر نص الرواية في الكافي، ج١، كتاب العقل والجهل، ح٢٠.

أنه لكل رسول معجزة

١ ـ لأنَّا نقول إنَّ البينات أعمّ من المعجزة.

٢–«إنَّه لو سلمنا بوجود المعجزة لكلّ نبي، فالمناسبة لما يشتهر في عصره غير معلومة، وإنما اللازم كون المعجزة ظاهرة»[1].

اللهم إلاَّ أن يقال بأنَّ الرواية السابقة –كما هو الظاهر– لا عموم فيها، وإنما موردها ثلاثة فقط من الرسل العظام عليهم السلام.

(١) بداية المعارف الإلهية ١/ ٢٤٥.

ما هي العلة المحدثة للمعجزة؟

القول الأول أنها الله سبحانه مباشرة دون توسط علل وأسباب[1]:

ويرد عليه:

١ - إنَّ هذا وإن كان أمراً ممكناً لعموم قدرته تعالى على كل شيء ممكن بذاته، إلاَّ أنه على خلاف المعهود من سننه تعالى التي أجراها في الكون، وهي أن يكون لكل شيء سبباً وعلة، كما تقدم عند الحديث عن الآية ٣ من سورة الطلاق.

٢ - إنَّ انتساب الحوادث المتجددة المقتضبة بلا وساطة علل وأسباب إلى الله تعالى المنزه عن التجدد والحدوث، مما لا تتقبله الأصول الفلسفية المبتنية على لزوم وجود السنخية بين العلة والمعلول سنخية ظلية لا توليدية

---

(١) وهو قول الأشاعرة انظر مباحث في إعجاز القرآن، د. مصطفى مسلم، ص١٩، وبينات المعجزة الخالدة، ص٢٢.

وهذا مفقود بينه سبحانه وبين الزمان والزمانيات التي طُبِعَتْ على التجدد والتقضي.. ولا ينافي هذا عموم القدرة، فإنَّ عمومها أمر ثابت ومسلَّم إلاّ أنَّ الشيء ربما لا يقبل الوجود إلاّ عن طريق أسباب وعلل مادية، وهذا من باب التقريب كالأرقام الرياضية فإنَّ العدد خمسة -بوصف أنَّه خمسة- لا يتحقق إلاّ بعد تحقق الأربعة ويستحيل تحققه -بهذا الوصف- استقلالاً بلا تحقق آحاد قبله، وهذا كصدور الأكل من إنسان معين فإنَّ الأكل يتوقف على وجود أسباب وأدوات مادية كالفم واللسان والأسنان وعملية المضغ، ثم البلع وهذا النوع من الفعل لا يمكن أن ينسب إلى الله سبحانه نسبة مباشرية، وإنما ينسب إليه نسبة تسبيبية لأنَّ ماهيَّته محاطة بالأمور المادية[1].

(١) الإلهيات، ج٢، ص٧٥.

القول الثاني إنها علل مادية غير متعارفة:

اطلع عليها الأنبياء في ظل اتصالهم بعالم الغيب، نظير قولنا الفلاح يعرف علة مادية عادية لإثمار الأشجار، والمهندس الزراعي مثلاً لاطلاعه على خصوصيات الزراعة يعرف علة مادية أخرى لكنَّه قول لا يدعمه دليل.

القول الثالث أنها الملائكة والموجودات المجردة: وهي المعبر عنها في سورة النازعات بـ«المدبرات أمراً».

القول الرابع إنها نفس النبي وروحه: وذهب إلى هذا جمع من الفلاسفة والمحققين[1] وإدراك صحته يتوقف على معرفة القدرة العظيمة التي تمتلكها النفس البشرية فنقول: إنَّ الإنسان بتهذيب نفسه عن الغرائز والشهوات تتفجر طاقاته كما يصنع المرتاضون.

---

(١) انظر تفسير الميزان، ج١، ص٧٩.

يقول صدر المتألهين:

«لا عجب أن يكون لبعض النفوس قوة إلهية فيعطيها العنصر في العالم المادي كإطاعة بدنه إياها»[1]. والساحر كذلك نسب القرآن إليه القيام بالأمور الخارقة[2]، فإذا كان هذا شأن المرتاض أو الساحر والذي ربما لم يقم إلاَّ بالرياضة وتعلم السحر، ولم يقم بالفرائض وتجنب المحرمات، فكيف بمن وقع تحت عناية الله ورعايته؟

---

(١) المبدأ والمعاد، ص٣٣٥ بتصرف.

(٢) كالتفريق بين المرء وزوجه/ حيث قال الله تعالى: ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) ﴾ ﴿البقرة﴾، وقال السيد الطباطبائي: «والآية كما أنها تصدق صحة السحر في الجملة، كذلك تدل على أنَّ السحر أيضاً كالمعجزة في كونه عن مبدأ نفساني في الساحر لمكان الإذن» مع ملاحظة الفوارق بين السحر والمعجزة كما تقدم.

وفي الذكر الحكيم إشارات إلى هذا المعنى، حيث نسب الإتيان بالمعجزة إلى نفس الرسول بقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ﴿غافر: ٧٨﴾.

فإنَّ الفاعل في يأتي هو الرسول المتقدم عليه. وقد يؤيد هذا الاحتمال بما ورد في توصيف الأنبياء، بأنهم جند الله وأنهم منصورون في مسرح التحدي ومقابلة الأعداء قال سبحانه:

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ ﴿الصافات﴾.

وكون النبي منصوراً في جميع المواضع، ومنها مواضع التحدي يدل على أن له دوراً ودخالة في الإتيان بخوارق العادات، ونظير ذلك قوله سبحانه:

﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ ﴿المجادلة: ٢١﴾.

فوصف الرسول بكونه غالباً، ولا معنى للغالبية إلاّ لدخالته في مواضع التحدي. وهناك آيات أخرى خاصة تسند إلى خصوص بعض الأنبياء خوارق العادة بل ائتمار الكون بأمرهم:

قال تعالى:

﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ ﴿الأنبياء﴾.

وقال في المسيح:

﴿ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ﴿آل عمران: ٤٩﴾.

بل ماذا يفهم الإنسان إذا قرأ هذه الآية التي تنقل مخاطبة يوسف عليه السلام أخوته: ﴿ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ ﴿يوسف: ٩٣﴾.

والآية التالية تبين نتيجة أمره: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ ﴿يوسف: ٩٦﴾.

فما هو العامل المؤثر في استرجاع بصره بعدما ابيضت عيناه من الحزن؟

هل هو القميص الملطخ بالدم؟ أو عامل البشارة والقميص[1]، ليس هذا ولا ذاك، بل هو نفس إرادته الزكية المؤثرة بإذن الله، وعندما تقتضي المصلحة الإلهية ذلك، وإنما توسل بالقميص ليعلم أنَّه هو القائم بذلك[2].

وقال الشهيد مطّهري بأن القائلين بهذا القول استدلُّوا بـ«آيات القرآن، ومنطقهم أن القرآن نفسه نسب المعجزات إلى شخص النبي، ولكن مع التركيز دائماً على قاعدة (بإذن الله)، فالنبي يقول ولكن بإذن الله».

---

(١) وفي الروايات أنَّ حامله كان أحد إخوة يوسف.

(٢) البحث السابق كله مستفاد من الإلهيات، ج٢، ص٧٥-٩١ بتصرف.

ثم يستدل الشهيد مطهري بالآيات التالية: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ﴿الرعد: ٣٨﴾.

وبشأن السيد المسيح يقول تعالى في سورة آل عمران:

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾
﴿آل عمران: ٤٩﴾

والمعجزة هي:

﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ﴿آل عمران: ٤٩﴾

وقوله تعالى أيضاً:

﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾
﴿آل عمران: ٤٩﴾

فهنا ينسب الفعل إلى نفسه عليه السلام بمنتهى الصراحة ولكن يذكر أنه فعل ذلك بإذن الله.

وهناك آية استفاد منها الشهيد مطهري تلميحاً لا تصريحاً هي:

﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾

﴿الفرقان﴾.

فالآية تُشعر أن نزول الملائكة أو رؤية الله بذلك المعنى الذي يدَّعيه الأنبياء «بديهي هذه الرؤية لا تتم بالعين» هما فقط مما يليق ببعض الأفراد لا كلهم.

ومعنى ذلك أن النفوس ليست متساوية بل هناك نفوس خاصة لها هذه الأهلية والجدارة. وهذا أيضاً فيه دلالة على أن لنفوس الأنبياء درجة ومقاماً خاصين، بموجبه يتلقون الوحي ويرتبطون بالملائكة، وتصدر عنهم أيضاً أفعال معجزة[1].

---

(١) النبوة للشهيد المطهري.

أقول: يرد على هذا التفسير لعلة المعجزة «أي القول بأنها نفس النبي وروحه» عدة أمور:

١- إن ظاهر القرآن الكريم أن بعض معجزات الأنبياء - على الأقل - لا دخل لنفسية النبي فيها كناقة صالح عليه السلام ونجاة الخليل من النار.

٢- على أنَّ بعض المعجزات كان واضحاً فيها عنصر المفاجأة للنبي، كما في قصة موسى عليه السلام ومفاجأته بتحول العصا إلى ثعبان مبين حتى أنَّه ولّى مدبراً.

فتأمل قوله تعالى:

﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ ﴿النمل﴾.

٣- وماذا نقول في القرآن أعظم المعجزات طراً فهل لنفس النبي صلى الله عليه وآله دور فيه أيضاً:

٤- يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ ﴿العنكبوت﴾. قال السيد العلامة: جواباً عن زعمهم: إنَّ من يدعي الرسالة يدعي قوة غيبية يقدر بها على كل ما أراد بأن الآيات عند الله ينزلها متى أراد، وكيفما شاء لا يشاركه في القدرة عليها غيره، فليس إلى النبي شيء إلاَّ أن يشاء الله، ثم زاده بياناً بقصر دور النبي ﷺ في الإنذار فحسب بقوله: ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾[1].

٥- وأما استدلال مطهري بأن كلمة بإذن الله لا تجتمع مع فعل الله، فيرد عليه وبمراجعة المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، أننا وجدنا الآيات التالية: وكلها تشير إلى فعل الله وتتضمن كلمة «الإذن» فتأمل فيها:

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ ﴿الأعراف: ٥٨﴾.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾﴾ ﴿إبراهيم﴾.

---

(١) الميزان: ج١٦، ص١٤٠.

﴿ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۢ بِإِذۡنِ رَبِّهَا ﴾ ﴿ إبراهيم: ٢٥ ﴾.

﴿ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓ ﴾

﴿ الحج: ٦٥ ﴾.

ولهذا فالمختار أنَّ المعجزة يجريها الله على يد النبي بحكمته تعالى، ووفق سننه وهو الرأي الأول مع إصلاح ما.

تفسير خاطئ للمعجزة

عند بعض أهل التجديد من المفكرين الإسلاميين

إن الحضارة المادية الغربية التي اعتمدت على الحس والتجربة، وأعطت كل القيمة والوزن لما أيدته أدوات المعرفة المادية.

قد أدهشت -هذه الحضارة- جماعة من المفكرين المسلمين فحاولوا للجمع بين إيمانهم بالغيب وتأثرهم بالمنهج الحسي التجريبي، حاولوا تأويل بعض ما يرتبط بالغيب كالمعاجز، وعلى رأس هؤلاء الشيخ محمد عبده، وتلميذه السيد رشيد رضا في تفسير المنار.

فهذه المدرسة المصرية وإن كان يحسب لها نهجها الإصلاحي التجديدي وتخليص التفسير من قيود الماضي وعرضه بثوب عصري جديد، وبيان خلاب وأسلوب سلس.

لكنَّ هذه المدرسة لتأثرها بالمنهج الحسي التجريبي الذي ساد الغرب أوائل القرن العشرين، فقد وقعت في المحذور كتأويل الشيخ محمد عبده الطير الأبابيل والحجارة من سجيل بالجراثيم، والجن بالميكروبات، وكتأويل آية انشقاق القمر بظهور الحجة وقوة البرهان النبوي، وتحصر هذه المدرسة معجزات الرسول بالقرآن فقط[1].

وبما أنَّنا عرضنا للشبهة القائلة بانحصار معجزات الرسول ﷺ بالقرآن[2] فلا بأس بمناقشتها في البحث اللاحق لخطورة هذه الشبهة التي تلتقي مع شبهات القساوسة النصارى.

(١) الإلهيات: ج٢، ص٨٧–٨٨، والتفسير والمفسرون في العصر الحديث تأليف عبد القادر صالح، ص٣٢٣ وص٣٤٤.

(٢) وقد سار على درب رشيد رضا الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه حياة محمد، أنظر بينات المعجزة الخالدة، ص١٠٦–١٠٨.

هل للرسول ﷺ معجزة غير القرآن؟

ذكر العلامة ابن شهر آشوب أنَّ للنبي ﷺ من المعجزات ما لم يكن لغيره من الأنبياء، وأنَّ له ﷺ أربعة آلاف وأربعمائة وأربعين معجزة ذكرت منها ثلاثة آلاف[1] وتتنوع تلك المعجزات إلى أربعة أنواع:

١- ما كان قبل ولادته.

٢- بعد ميلاده.

٣- بعد بعثته.

٤- بعد وفاته.

وأضاف السيد رضا الصدر رحمه الله نوعاً خامساً وهو ما حدث في ساعة ميلاده[2].

---

(١) ومن أجمع الكتب التي أحصت هذه المعاجز هو كتاب مدينة المعاجز للسيد البحراني والمجلد السادس من بحار الأنوار للعلامة المجلسي.

(٢) محمد في القرآن تأليف السيد رضا الصدر، ص١٤٠.

ثم إنَّ الأدلة على عدم انحصار معجزات النبي ﷺ بالقرآن فقط ما يلي:

١- أخبار المسلمين المتواترة الدالة على صدور المعجزات منه.. ولهذه الأخبار جهتان من الامتياز على أخبار أهل الكتاب بمعجزات أنبيائهم:

الجهة الأولى: قرب الزمان، فإنَّ الشيء إذا قرب زمانه كان تحصيل الجزم بوقوعه أيسر منه إذا بعد زمانه.

الجهة الثانية: كثرة الرواة فإنَّ أصحاب النبي ﷺ الذين شاهدوا معجزاته أكثر بآلاف المرات من بني إسرائيل، ومن المؤمنين بعيسى الناقلين لمعجزاتهم...

٢- إنَّ نبي الإسلام ﷺ قد أثبت للأنبياء السابقين معجزات كثيرة، ثم ادعى أنَّه هو أفضل هؤلاء الأنبياء جميعاً، وأنَّه خاتمهم، وهذا يقتضي صدور تلك المعجزات منه على نحو أتمّ..[1].

---

(١) البيان: مصدر سابق، ص١٠٣-١٠٤.

٣- القرآن نفسه يثبت للنبي معاجز غير القرآن:

أ- انشقاق القمر ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ ﴾ ﴿القمر﴾.

ب- إسراء ومعراج النبي١ الإسراء/ ١، والنجم ٥–١٨.

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١ ﴾ ﴿الإسراء﴾.

﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨ ﴾ ﴿النجم﴾.

ج- مباهلة النبي لأهل الكتاب آل عمران / ٦٢[1].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ ﴿آل عمران﴾.

٤- عالمية رسالته ﷺ تقتضي معجزات عامة: فكيف يصح في ميزان الحكمة الإلهية أن يكلف الله بها أقواماً غير العرب دون أن يؤيدها بمعجزات دالة على صدق الرسول وحقيَّة الرسالة إلاَّ معجزة لسانية عربية لا يستشعرها غير نوابغ اللسان العربي[2].

وعلى هذا ينبغي أن تتنوع المعجزة وتختلف باختلاف الموارد والأشخاص كما استدعت حكمته سبحانه أن يباهل نبيه الكريم نصارى نجران، هذا إذا كان طالب المعجزة يبتغيها بصدق وإخلاص، أمّا الكاذب المتعنت الذي لا يجدي معه شيء فيقتصر معه القرآن، لأنَّ إعجازه عام لا

(١) للتوسع أكثر راجع الإلهيات، ج٢، ص٣٤٩-٤٤٤، وقد ذكر الشيخ السبحاني هناك سبعة موارد.

(٢) بينات المعجزة الخالدة، ص١٣٠.

يختص بعصر دون عصر، ولا بفئة دون فئة، أو بفرد دون فرد[1].

أقول: هذا الوجه الأخير يصلح كمؤيد للاستئناس، وإلاَّ فالوجوه الثلاثة الأولى كافية في إثبات المطلوب.

(١) عقيدتنا في النبوة، ص١٨٤.

هل كانت معجزة الخليل تفكيكا بين العلة والمعلول؟

من الثابت عقلاً استحالة التفكيك بين العلة والمعلول، وهنا يُثار سؤال حول نجاة إبراهيم عليه السلام من النار وصيرورتها برداً وسلاماً عليه. ألا يعني ذلك تفكيكاً لهذا القانون، وقد قلنا فيما سبق إنَّ المعجزة ليست خرقاً لقانون العلية؟

وفي مقام الجواب قد يقال:

١- إنَّ قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ ﴿الأنبياء﴾ خطاب تكويني للنار تبدلت به خاصية حرارتها وإحراقها وإفنائها برداً وسلاماً بالنسبة إلى إبراهيم عليه السلام على طريق خرق العادة، وبذلك يظهر أن لا سبيل لنا إلى الوقوف على حقيقة الأمر، إذ الأبحاث العقلية عن الحوادث الكونية، إنَّما تجري فيما لنا علم بروابط العلية والمعلولية فيه من العاديات المتكررة، وأمَّا الخوارق التي نجهل الروابط فيها فلا

مجرى لها فيها. نعم نعلم إجمالاً أنَّ لهمم النفوس دخلاً فيها[1].

أقول: أمَّا القسم الأخير من كلام السيد العلامة، ومن وافقه كالشيخ السبحاني «دور همم النفوس» فقد تقدم ما فيه، وأقول: وأمَّا خلاصة الجواب: أن لا سبيل للأبحاث العقلية هنا، لأننا نجهل روابط العلية فيها، وإنما ينحصر البحث العقلي عن الحوادث الكونية من العاديات المتكررة التي نعلم بالروابط فيها فلنبحث عن جواب آخر.

٢- ما ذكره الشهيد الصدر[2] كنقض على القائلين بأن فصم العلاقة الضرورية التي تقوم بين الظواهر الطبيعية يناقض العلم الذي اكتشف ذلك القانون الطبيعي، وحدد هذه العلاقة الضرورية على أسس تجريبية واستقرائية.

---

(١) الميزان: ج١٤، ص٣٠٣.

(٢) بحث حول المهدي للسيد الشهيد الصدر وسيذكر السيد الشهيد جوابين أحدهما نقضي والآخر حلي.

قال ﷺ : والجواب أنَّ العلم نفسه قد أجاب عن هذا السؤال بالتنازل عن فكرة الضرورة في القانون الطبيعي.

وتوضيح ذلك:

أنَّ القوانين الطبيعية يكتشفها العلم على أساس التجربة والملاحظة المنتظمة، فحين يطرد وقوع ظاهرة طبيعية عقيب ظاهرة أخرى يُستدلُّ بهذا الإطراد على قانون طبيعي، وهو أنَّه كلما وجدت الظاهرة الأولى وجدت الظاهرة الثانية عقيبها غير أنَّ العلم لا يفترض في هذا القانون الطبيعي علاقة ضرورية بين الظاهرتين نابعة من صميم هذه الظاهرة وذاتها وصميم تلك وذاتها، لأنَّ الضرورة حالة غيبية لا يمكن للتجربة ووسائل البحث الاستقرائي والعلمي إثباتها، ولهذا فإنَّ منطق العلم الحديث يؤكد أنَّ القانون الطبيعي –كما يعرّفه العلم– لا يتحدث عن علاقة ضرورية بل عن اقتران مستمر بين ظاهرتين، فإذا جاءت المعجزة وفصلت إحدى الظاهرتين عن الأخرى في قانون طبيعي لم يكن ذلك فصماً لعلاقة ضرورية بين ظاهرتين.

وخلاصة الجواب السابق: إنَّ المعجزة في ضوء المنطق العلمي الحديث حالة استثنائية لهذا الاطراد في الاقتران أو التتابع دون افتراض علاقة الضرورة.

٣- والجواب الحلي البرهاني الذي ذكره السيد الشهيد أيضاً وفقاً لمبانيه حيث قال: «**وأما على ضوء الأسس المنطقية للاستقراء، فنحن نتفق مع وجهة النظر العلمية الحديثة في أنَّ الاستقراء، لا يبرهن على علاقة الضرورة بين الظاهرتين، ولكننا نرى أنَّه يدل على وجود تفسير مشترك لإطراد التقارن أو التعاقب بين الظاهرتين باستمرار، وهذا التفسير المشترك كما يمكن صياغته على أساس افتراض الضرورة الذاتية كذلك يمكن صياغته على أساس افتراض حكمة دعت منظم الكون إلى ربط ظواهر معينة بظواهر أخرى باستمرار، وهذه الحكمة نفسها تدعو أحياناً إلى الاستثناء فتحدث المعجزة**»[1].

---

(١) المصدر السابق.

٤- ما ذكره الفخر الرازي في التفسير الكبير بقوله:

«المسألة الثانية: اختلفوا في أن النار كيف بردت على ثلاثة أقوال:

أحدهما: أن الله تعالى أزال عنها ما فيها من الحر والإحراق، وأبقى ما فيها من الإضاءة والإشراق والله على كل شيء قدير.

وثانيها[١]: أن الله تعالى خلق في جسم إبراهيم كيفية مانعة من وصول أذى النار إليه، كما يفعل بخزنة جهنم في الآخرة، كما وأنه ركّب بُنية النعامة بحيث لا يضرها ابتلاع الحديد المحماة وبدن السمندل[٢] بحيث لا يضره المكث في النار.

---

(١) قال الزمخشري في الكشاف: ويدل عليه قوله: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ ﴿ الأنبياء ﴾.

(٢) جاء في كتب اللغة:

أ- المعجم الوسيط: النعامة حيوان من رتبة البرمائيات صغير الجسم غالباً يشبه العظاءة في شكلها العام، والسمندل أيضاً طائر بالهند لا يحترق بالنار فيما زعموه، والسمندل نسيج من ريش بعض الطيور لا يحترق.

وثالثهما: أنه سبحانه خلق بينه وبين النار حائلاً يمنع من وصول أثر النار إليه، قال المحققون: والأول أولى بأن ظاهر قوله: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ ﴿الأنبياء﴾.

أن نفس النار صارت باردة حتى سلم إبراهيم من تأثيرها، لا أن النار بقيت كما كانت..[1].

٥- تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: «وقد أظهر الله ذلك معجزة لإبراهيم، إذ وجه إلى النار تعلّق الإرادة بسلب قوة الإحراق، وأن تكون برداً وسلاماً إن كان الكلام على الحقيقة.

أي كوني كبرد في عدم تحريق الملقى فيه بِحَرّكِ.

ب- المنجد: السمندر «بالراء» دويبة تفرز مادة تطفئ النار، ولذلك زعموا أنها لا تحترق بالنار «يونانية».

ج- لسان العرب: السمندل طائر إذا انقطع نسله وهَرِم ألقى نفسه في الجمر فيعود إلى شبابه، وقيل هو دابة يدخل النار فلا تحرقه.

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي مج٨، ج٢٢، ص١٥٩، دار إحياء التراث العربي -بيروت/ الطبعة الرابعة٢٠٠١م.

وأما كونها سلاماً فهو حقيقة لا محالة..»[1].

٦- وفي تفسير مجمع البيان:

وذكر في كون النار برداً على إبراهيم وجوه:

أحدهما: أن الله سبحانه أحدث فيها برداً بدلاً من شدة الحرارة التي فيها فلم تؤذه.

ثانيها: أن الله سبحانه حال بينها وبينه فلم تصل إليه.

ثالثها: أن الإحراق إنما يحصل بالاعتمادات التي في النار صعداً فيجوز أن يُذْهِب سبحانه تلك الاعتمادات.

وعلى الجملة فقد علمنا أن الله سبحانه منع النار من إحراقه، وهو أعلم بتفاصيله[2].

٧- وقال الطبرسي في جوامع الجامع ج٢ ص٥٣١:

---

(١) تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، ج٨، ص١٠٦.
(٢) تفسير مجمع البيان، ج٧، ص١٠٤.

والتحقيق: أن النار من جهة مطاوعها فعل تعالى وإرادته كانت كمأمور أُمِرَ بشيء فامتثله، وأرادوا أن يكيدوه فما كانوا إلاّ مغلوبين مقهورين[1].

٨- وقال الشيخ محمد تقي مصباح بعد أن بيَّن:

أ- أن معرفة العلل الخاصة للأشياء تتم عادة بواسطة التجربة، وهي لا تستطيع إثبات العلة المنحصرة لظاهرة ما في جميع الأمكنة والأزمنة لأن التجربة البشرية محدودة.

ب- وضرب مثلاً لذلك الحرارة التي قد يعتقد الإنسان أنها لا تصدر إلاّ من النار، أما اليوم فاكتشفنا أنها تصدر من التفاعلات الكيماوية أو باحتكاك جسمين..

ج- فظهور علة جديدة لا يعني نقض قانون العلية، بل يدلنا ذلك على العلة السابقة لم تكن علة منحصرة.

---

(١) الطبرسي في جوامع الجامع، ج٢، ص٥٣١.

ويخلص الشيخ إلى أن الجواب هو: «إن قبول المعجزة لا يعني نقض قانون العلية، وإنما هو تسليم بوجود علة للظاهر العادية، لكنها ليست من سنخ العلل العادية، بل هي علة معنوية تتحقق في نفس النبي بإذن الله تعالى، وهي غير قابلة للتعليم والتعلم»[1].

وبعد استعراض هذه الأجوبة الثمانية فما نرتضيه هو ما ذكره الشهيد الصدر والفخر الرازي وصاحب المجمع.

---

(١) النبوة في القرآن، ص٥٠-٥١ بتصرف، وقد تقدَّم منا مناقشة القول بأن علة المعجزة هي نفس الشيء نفسه وروحه.

هل يصح وصف ما صدر عن الأئمة عليهم السلام بالمعاجز؟

وبعبارة أخرى هل من اللازم في المعجزة أن تكون مقرونة بادعاء النبوة أم لا؟ وبعبارة ثالثة أتكون المعجزة مختصة بالأنبياء، أم هي تشمل غير الأنبياء أيضاً؟

الجواب: إن للمعجزة اصطلاحين أحدهما يختص بالأنبياء كالوحي، فللوحي أيضاً اصطلاحات أحدها: هو النبوة، وله اصطلاحٌ آخر أعم، فمن هذا:

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ ﴿القصص: ٧﴾.

حتى نصل إلى معناه العام الذي يطلقه القرآن على النحل أيضاً: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ﴾ ﴿النحل: ٦٨﴾.

وكذا المعجزة فإن لها اصطلاحين، ومن الواضح ان كلمة المعجزة ليست من الاصطلاحات القرآنية، وإنما هي شائعة بين المتكلمين، وعلماء أصول العقائد وللمعجزة اصطلاحان عندهم:

١- اصطلاح خاص بالأنبياء وهي التي تقترن بها دعوى النبوة.

٢- اصطلاح عام وهو الذي يشمل معاجز الأئمة والمعصومين عليهم السلام، فهم لم يكونوا أنبياء، ومع ذلك كانت لهم معاجز.

فنسبة المعجزة إلى شخص لا تعني أنه يدعي النبوة.

إذن عندما نطرح المعجزة بعنوان كونها دليلاً على النبوة فمن الواضح أننا نقصد منها اصطلاحها الخاص وهو ما يقدمه النبي بعنوان أنه دليل على نبوته.

وأما عندما ننسبها إلى غير الأنبياء، فنحن نقصد منها معناها العام، وهو كل فعل خارق للعادة يتم بالاعتماد على القدرة الإلهية سواء أجري على يد النبي أم على يد غيره[١].

---

(١) النبوة في القرآن: الأستاذ الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي.

الفصل الثاني

معجزة نبينا ﷺ الخالدة
(القرآن الكريم)

تمهيد

إذا كان «من الخير أن يقف الإنسان دون ولوج هذا الباب، وأن يتصاغر أمام هذه العظمة، وقد يكون الاعتراف بالعجز خيراً من المضي في البيان»، كما قال السيد الخوئي قدس سره[1] فلندع الكلام للمعصومين ولنشنف آذاننا ونفتح قلوبنا وعقولنا:

روى الحارث الهمداني قال: «دخلت المسجد فإذا أناس يخوضون في أحاديث فدخلت على علي فقلت: ألا ترى أنَّ أناساً يخوضون في الأحاديث في المسجد؟

فقال: قد فعلوها؟

فقلت: نعم، قال: أما إني قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول:

---

(١) البيان: ص١٧.

ستكون فتن قلت: وما المخرج منها؟ قال: كتاب الله، كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، هو الذي من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، فهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم ينتهِ الجن إذ سمعته أن قالوا:

﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١﴾ «الجن» هو الذي من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم، خذها إليك يا أعور»[1].

ونقتطف من كلام أمير المؤمنين عليه السلام في صفة القرآن: «ثم أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحه، وسراجاً لا يخبو توقده، وبحراً لا يدرك قعره..

---

(١) ن. م ص١٨-١٩، نقلاً عن سنن الدرامي وصحيح الترمذي وبحار الأنوار وتفسير العياشي ولشرح الحديث راجع البيان ص١٩ وما بعدها.

جعله الله رياً لعطش العلماء، وربيعاً لقلوب الفقهاء، ومحاجَّ لطريق الصلحاء ودواءً ليس بعده داء، ونوراً ليس فيه ظلمة، وحبلاً وثيقاً عروته، وبرهاناً لمن تكلم به، وشاهداً لمن خاصم به، وفلجاً لمن حاج به..»[1].

وينقل السيد العلامة حديثاً عن الرسول الأكرمﷺ قال فيه:

«فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن، فإنَّه شافع مشفع وماحل مصدق، من جعله إمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو الدليل يدل على خير سبيل، وهو كتاب تفسير وبيان وتحصيل، وهو الفصل ليس بالهزل، وله ظهر وبطن، فظاهره حكمة، وباطنه علم، ظاهره أنيق وباطنه عميق، له نجوم، وعلى نجومه نجوم لا تحصى عجائبه، ولا تبلى غرائبه..»[2].

---

(١) المصدر السابق، ص٢١ وقولهﷺ: فلجاً أي ظفراً كما في المعجم الوسيط.

(٢) مقدمة تفسير الميزان.

ولَنِعْمَ ما قال السيد الخوئي (قدس سره): إنَّ تصديق علي (عليه السلام)، وهو على ما عليه من البراعة في البلاغة والمعارف وسائر العلوم لإعجاز القرآن، هو بنفسه دليل على أن القرآن وحي إلهي»[1].

ولكن رغم إقرارنا بالعجز أمام عظمة القرآن فلنقف هنيهة عند ساحل هذا البحر اللجي لنرتشف قطرة من نوره، ولنحلّق في آفاقه محاولين تلمس شيء من أوجه إعجازه ومواطن جماله، وكله جمال وبهاء.

(١) البيان، ص٧٧.

حول مزايا المعجزة القرآنية

تختلف معجزة القرآن عن معجزات الرسل السابقين بجوانب عديدة أهمها :

١- معجزة القرآن مستمرة : فمعجزات الرسول كانت معجزات كونية من رآها آمن بها ، ومن لم يرها صارت عنده خبراً ، إن شاء صدّقه ، وإن شاء لم يصدقه . أمّا معجزة القرآن فهي معجزة عقلية باقية خالدة في نوعها وأدائها ، أساسها الإعجاز بالطريقة التي تمت بها.

٢- معجزة القرآن هي المنهج ذاته : فمعجزة موسى عليه السلام العصا ، ومنهجه التوراة ، ومعجزة عيسى عليه السلام الطب ، ومنهجه الإنجيل.

أمّا معجزة محمد ﷺ ، فهي عين منهجه ليظل المنهج محروساً بالمعجزة ، وتظل المعجزة في المنهج الذي تكفل الله تعالى بحفظه فقال

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ ﴿الحجر﴾.
تكفل بحفظه ليبقى بنصه المعجز، ولأن العباد قاموا بتحريف الكتب السابقة أو بتحريف بعض نصوصها.

٣- معجزة القرآن متجددة: تعطي كل جيل عطاءً يختلف عن عطاء من سبقه.

٤- معجزة القرآن للعالم كله؛ فالتحدي عام لكل البشر عبر كل العصور[1]، وبناءً على ما سبق لم تكن هذه المعجزة دليل صدق رسول الله ﷺ فحسب، بل كانت شاهدة على رسالات الأنبياء السابقين وتبليغهم رسالات ربهم للأمم، وبهذه المزايا أصبحت أمة محمد ﷺ جديرة بالاستشهاد على الأمم الأخرى[2] ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ ﴿البقرة: ١٤٣﴾.

(١) الإعجاز في القرآن طريق إلى الإيمان، ص٢٠-٢٣ باختصار.
(٢) مباحث في إعجاز القرآن، ص٣١ ولا تنافي شهادة الأمة شهادة الأئمة المصداق الأجلى والأتم والأشرف.

٥- القرآن كتاب الهداية والتربية: إنَّه الكتاب الذي جاء به نبي الإسلام سنداً لنبوته يؤدي مهمتين:

أ- يثبت أنه مبعوث من جانبه سبحانه، وفي هذا يتساوى مع معاجز الأنبياء المتقدمين.

ب- يهدي الناس إلى أصول المعارف والعقائد، ويتكفل بتربية البشر وسوقهم إلى الفضائل الأخلاقية.

٦- استقلالها في إثبات الرسالة: إنَّ الكتاب مزية أخرى تفتقدها سائر المعاجز حتى المعجزات الأخرى للنبي الأكرمﷺ، وهي أنَّ سائر المعاجز لا تثبت شيئاً إلاَّ أن يكون معها مدعي النبوة، فيدّعي ويُسأل البينة، فيأتي بالمعجز ويتحدى به، وأمَّا القرآن الكريم فإنَّه بنفسه يقوم بكل هذه الأمور فيطرح بنفسه الدعوى، ويتساءل هو عن برهانها، ثم يثبتها بنفسه ويتحدى الناس على الإتيان بمثله.

٧- التحدي بأبسط الأشياء وأوفرها: فالإذعان بكون القرآن معجزة إلهية لا يحتاج إلى شرائط في السمع أزيد من كونه عربياً صحيحاً عارفاً بأساليب الكلام[١].

نعم، إنَّ القرآن قد صُنع من عناصر هي أسهل شيء للبشر، وهي الحروف، وهل هناك شيء أسهل على البشر من صياغة الحروف، ولكن مع ذلك لم يستطع بشر أن يأتي بمثل القرآن[٢].

---

(١) الإلهيات: ج٢، ص٢٤٠-٢٤٢.

(٢) محمد في القرآن: ص١٤٣.

مراحل التحدي بالقرآن الكريم والتدرج به.

وقبل الشروع في بيان مراحل التحدي، لابدَّ من بيان الفرق بين وجه التحدي، ووجه الإعجاز فكثيراً ما نجد عند الباحثين خلطاً بينهما وكأنهما شيء واحد، مع أنهما في الحقيقة شيئان منفصلان وإن كان ثمة علاقة بينهما.

ولعل أول من لفت النظر إلى هذه القضية هو ابن عطية حيث قال:

«وجه التحدي في القرآن إنما هو بنظمه، وصحة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه، ووجه إعجازه أنَّ الله قد أحاط بكل شيء علماً وأحاط بالكلام كله فعلم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أوَّل القرآن إلى آخره»[1].

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ١ / ٢٥.

وبالتالي يمكننا القول أن وجه الإعجاز، هو نتيجة لوجه التحدي، وأن وجه التحدي مقدمة لوجه الإعجاز.

وللدكتورة عائشة عبد الرحمن تفريق آخر استفادته من مقدمة تفسير الطبري هو أنَّ التحدي لازم لأهل كل زمان، والإعجاز فيها واقع في كل عصر، فإن يكن للعرب في عصر المبعث وجه اختصاص بالتحدي فلأنهم أصحاب هذا اللسان العربي يدركون أسرار بيانه، فمناط التحدي إذاً هو عجز بلغاء العرب في عصر المبعث عن معارضة هذا القرآن، دون أن يفهم من هذا أنَّ حجة إعجازه خاصة بعصر دون عصر أو على العرب دون العجم[1].

وأمَّا مراحل التحدي: فقد وقع تحدي القرآن العظيم للعرب في كل أوقات الدعوة، سواء في عهدها المكي، أو حين انتقلت إلى المدينة المنورة.

---

(١) الإعجاز البياني للقرآن، د. عائشة عبد الرحمن، ص٧٤-٧٥.

وقد استقصت آيات التحدي -في سورة القرآن حسب توقيفها المتواتر- كل الصور التي يزول معها كل عذر في عدم امتثالهم واستجابتهم له.

١ - في العهد المكي: نجد أول إشارات هذا التحدي في سورة القصص وترتيبها في النزول هو «٤٩» في قول الله سبحانه وتعالى:

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ ﴿القصص﴾.

وفي سورة الإسراء كانت ثاني إشارات التحدي في قوله عزَّ شأنه: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ

هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾[1] وهذه السورة -مكية- ترتيب نزولها هو الخامس.

وفي سورة يونس: كان التحدي لثالث مرة في قوله جل وعلا: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ ﴿يونس﴾. وهذه السورة هي الـ«٥١» حسب ترتيب النزول.

---

(١) سورة الإسراء: الآية٨٨. فإن قيل إنما وقع العجز في الإنسان دون الجن، فالجواب أنَّ الجن ليسوا من أهل اللسان العربي الذي جاء القرآن على أساليبه، وإنما ذكروا في الآية تعظيماً لشأنه، لأن للهيأة الاجتماعية من القوة ما ليس للأفراد، فإذا فرض اجتماع الثقلين وظاهر بعضهم بعضاً وعجزوا من المعارضة كان الفريق الواحد أعجز، وقال بعضهم: بل وقع الجن أيضاً والملائكة معنيون في الآية لأنهم لا يقدرون على الإتيان بمثل القرآن.
وقال الكرماني في غرائب التفسير: إنما اقتصر في الآية على ذكر الجن والإنس لأنَّه ﷺ كان مبعوثاً إلى الثقلين دون الملائكة / موجز علوم القرآن ص٥٦ نقلاً عن معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي.

وفي سورة هود: كان التحدي للمرة الرابعة في قول الحق سبحانه: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

وترتيب هذه السورة هو الثاني والخمسون في النزول.

وفي سورة الطور وترتيب نزولها السادس والسبعون كان التحدي في قول الله عز وجل: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ﴿الطور﴾.

٢- أما في العهد المدني: فقد وقع التحدي مرة واحدة وقد جاء ذلك في سورة البقرة وفي قول الله سبحانه: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

فقد تدرج التحدي معهم كما يلي:

١- بكتاب من عند الله أهدى من القرآن.

٢- في الإتيان بمثل هذا القرآن.

٣- في الإتيان بسورة مثله.

٤- في الإتيان بعشر سور مثله وليستعينوا في افترائها بمن شاءوا.

٥- التحدي في الإتيان بحديث مثله.

٦- التحدي في الإتيان بسورة من مثله[1].

ونلحظ هنا:

أ- كيف تنزل معهم من طلب المماثلة إلى طلب شيء مما يماثل: كأنه يقول لا أكلفكم بالمماثلة العامة، بل حسبكم أن تأتوا بشيء فيه جنس المماثلة ومطلقها وبما يكون مثلاً على التقريب لا التحديد.

---

(١) مفهوم الإعجاز القرآني حتى القرن السادس، د. أحمد جمال العمري، ص٢٣٣-٢٣٥.

وهذا أقصى ما يمكن من التنزل، ولذا كان هو آخر صيغ التحدي نزولاً، فلم يجئ التحدي بلفظ «من مثله» إلاَّ في سورة البقرة المدنية وسائر المراتب بلفظ «مثله» في السور التي نزلت قبل ذلك بمكة[1].

ب- تتابع التحدي في العهد المكي ما بين السور «٤٩-٥٢» وسبب ذلك هو مكابدته ﷺ وتحمله للبلاء من سفهاء مكة بعد أن فقد المعين والمؤازر والمعضّد، فقد توفي أبو طالب عليه السلام، وتوفيت خديجة رضي الله عنه، وأصبح الرسول ﷺ وجهاً لوجه مع الكافرين المعاندين[2].

ج- لكي لا يقال إنَّ محمداً تحدى أهل مكة والأمية فاشية فيهم، ولا علم لهم بعلوم الأديان وبالأنبياء والكتب ولو أنه تحدى غيرهم لأمكنهم أن يأتوا بمثل قرآنه، كرر في المرحلة المدنية وبين ظهراني أهل الكتاب وسجل العجز المطلق لكل المخلوقين إلى يوم

(١) النبأ العظيم، د. محمد عبد الله دراز هامش ص٧٠-٧١.
(٢) مفهوم الإعجاز القرآني مصدر سابق، ص٢٣٥.

القيامة[1] حيث قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ ﴿البقرة: ٢٤﴾.

فانظر أي إلهاب وأي استفزاز، لقد أجهز عليهم بالحكم البات المؤيد في قوله: ﴿ وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾ ثم هددهم بالنار ثم سوّاهم بالأحجار[2].

فبما أنَّ السور جاءت بلفظ نكرة «سورة» فهي تشمل كل سورة في القرآن، طويلة، أو قصيرة، فيكون القدر المعجز من القرآن هو السورة من القرآن الكريم طويلة أو قصيرة. هذا هو رأي جمهور العلماء إلاَّ أن بعضهم زاد على ذلك: أنَّ مقدار السورة القصيرة وهي ثلاث آيات معجز أيضاً.

(١) مباحث في إعجاز القرآن، ص٤٠.
(٢) النبأ العظيم، ص٧١.

❖ ونقل عن بعض المعتزلة قولهم: إنَّ الإعجاز يتعلق بجميع القرآن لا ببعضه وهذا الرأي مصادم لآيات التحدي التي تدرجت في التحدي بكل القرآن إلى التحدي بعشر سور إلى التحدي بسورة واحدة.

❖ وذهبت طائفة أخرى إلى أنَّ الإعجاز في القليل والكثير من القرآن دون تقييد بسورة، واستدلوا بظاهر قوله تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ﴾ ﴿الطور: ٣٤﴾، وقالوا المقصود بالحديث: أي كلام يفيد معنى، سواء أكان آية أم أكثر أو أقل، ورأي الجمهور هنا هو الذي يظاهره ويؤده ظاهر مراحل التحدي فيه.

إن السورة القصيرة قد تضمنت في الغالب أصول الدين، ونبهت على أسس العقيدة، لذا نجد في بعض الآثار وصف بعضها، بأنها تعدل ثلث القرآن، أو نصفه أو ربعه والحكمة في تضمّن هذه السور، مثل هذه الأمور العظام –والله أعلم– هي أنَّ أصول الدين وأسس العقيدة تشتد الحاجة إلى حضورها في القلوب وسيطرتها على الأفكار، فأودعت في

كلمات مختصرة تامة لتكون كالأمثال السائرة الخفية على اللسان الغريزة في الجنان. ولذا يجب التفريق بين أمرين:

الأول: ما وقع به التحدي: وهو السور طويلة كانت أم قصيرة، فالإتيان بمثلها خارج عن طوق الإنس والجن وإن قصرت كسورة الكوثر.

الثاني: القدر الدال على كون القرآن كلام الله، وهذا لا يقيد فيه بمقدار معين، فقد يدرك ذلك من خلال سورة أو من خلال آية واحدة أو بعض آية أو كلمة واحدة، فورود بعض الكلمات في سياق الحقائق الكونية أو الحقائق العلمية في النفس الإنسانية يدل على أنَّ ذلك لا يدخل في نطاق العلم البشري[1] كما سيأتي بيانه.

ما هو مرجع الضمير في قوله: ﴿ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾

﴿البقرة: ٢٣﴾.

---

(١) مباحث في إعجاز القرآن، ص٤٠-٤٢ بتصرف.

قال السيد العلامة الطباطبائي: قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ ﴿البقرة: ٢٣﴾ أمر تعجيزي لإبانة إعجاز القرآن، وأنَّه كتاب منزَّل من عند الله لا ريب فيه إعجازاً باقياً بمر الدهور وتوالي القرون، وقد تكرر في كلامه تعالى هذا التعجيز كقوله تعالى:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ ﴿الإسراء﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ ﴿هود﴾.

وعلى هذا فالضمير في «مثله» عائد إلى قوله تعالى:

«ما نزلنا»، ويكون تعجيزاً بالقرآن نفسه وبداعة أسلوبه وبيانه.

٢–ويمكن أن يكون الضمير راجعاً إلى قوله «عبدنا» فيكون تعجيزاً بالقرآن من حيث إنَّ الذي جاء به رجل أي لم يتعلم من معلم، ولم يتلقَّ شيئاً من هذه المعارف الغالية العالية، والبينات البديعة المتقنة أحد من الناس، فتكون الآية في مساق قوله تعالى:

﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

﴿يونس﴾.

وقد ورد التفسيران معاً في بعض الأخبار.

٣–وأمَّا احتمال رجوع الضمير إلى نفس السورة كسورة الكوثر، أو سورة يونس مثلاً يأباه الفهم المستأنس بأساليب الكلام، إذ من يرمي القرآن بأنه افتراء على الله تعالى، إنما يرميه جميعاً ولا يخصص قوله ذاك بسورة دون سورة، فلا معنى لرده بالتحدي بسورة البقرة أو بسورة يونس لرجوع المعنى حينئذٍ إلى مثل قولنا:

وإن كنتم في ريب من سورة الكوثر أو الإخلاص مثلاً فأتوا بسورة مثل سورة يونس وهو بيّن الاستهجان[1].

٤–وأمَّا احتمال رجوع الضمير إلى الله تعالى فيضعفه قوله تعالى:

﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ ﴾ «هود:١٣» والسياق واحد كما قال الزملكاني[2].

مراده أن سياق آيات التحدي واحد سواء جاءت بلفظ «من مثله» أو «مثله» فهاء الضمير تعود إلى القرآن الكريم.

أقول: وبناءً عليه فهذا يضعف القول الثاني أيضاً الذي ذكره السيد العلامة من رجوع الضمير إلى «عبدنا».

---

(١) تفسير الميزان، ج١، ص٥٦.

(٢) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن تأليف كمال الدين الزملكاني، ص٥٦ المتوفى سنة ٦٥١هـ.

فالصحيح من هذه الأقوال هو الأول، وهو الظاهر من كلامه تعالى، وهو ما ذكره السيد العلامة أولاً ومقدماً على غيره وبلسان الجزم، وإنما ذكر الثاني بصيغة يمكن فتدبر.

وجه الإعجاز في القرآن:

إنَّ القرآن كما تقدم في آيات التحدي يدعي عموم إعجازه من جميع الجهات من حيث كونه إعجازاً لكل فرد من الإنس والجن من عامة أو خاصة، أو عالم أو جاهل.

فلو كان التحدي ببلاغة القرآن وجزالة أسلوبه فقط[1] لم يتعد أقواماً خاصين وهم العرب العرباء من الجاهلين والمخضرمين، قبل اختلاط اللسان وفساده وقد قَرَّعَ بالآية أسماع الإنس والجن.

- ❖ وكذا غير البلاغة من كل صفة اشتمل عليها القرآن، كالمعارف الحقيقية، والأخلاق الفاضلة، والأحكام التشريعية، والأخبار الغيبية، ومعارف أخرى لم يكشف البشر حين النزول عن وجهها النقاب...

---

(١) إن الإعجاز البلاغي لم يكن قط موضع جدل أو خلاف، وإنما كان الجدل بين الفرق الإسلامية في اعتباره الوجه في الإعجاز أو القول معه بوجوه أخرى.

فالقرآن آية للتبليغ في بلاغته، وفصاحته وللحكيم في حكمته، وللعالم في علمه، وللإجتماعي في اجتماعه، وللمقننين في تقنينهم، وللسياسيين في سياستهم، وللحكام في حكومتهم، ولجميع العالمين فيما لا ينالونه جميعاً كالغيب، والاختلاف في الحكم والعلم والبيان[1].

وقديماً «سئل بندار الفارسي عن موضع الإعجاز في القرآن فقال: هذه مسألة فيها حيف على المفتي، وذلك أنَّه شبيه بقولكم موضع الإنسان من الإنسان، فليس للإنسان موضع من الإنسان، وكذلك القرآن لشرفه لا يُشار إلى شيء منه، إلاّ وكان ذلك المعنى آية في نفسه، ومعجزة لمحاوله، وأهدى لقائله، وليس في طاقة البشر الإحاطة بأغراض الله في كتابه، فلذلك حارت العقول وتاهت الأبصار عنده».

وعليه فإنَّ تحديد بعض العلماء وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، إن هي إلاّ وجوه إعجاز في القرآن، وليست وجوه

---

(١) الميزان: ج١، ص٥٦-٦٠ مع تقديم وتأخير منا.

الإعجاز فيه لأنَّها غير منحصرة فيما ذكروه، بل هو كما قال تعالى:

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ ﴿لقمان﴾ [1].

والمعروف بين علمائنا هو التعرض لستة وجوه هي:

١- المعارف.

٢- الاستقامة ونظمه.

٣- تشريعاته ونظامه.

٤- الإتقان في المعاني.

٥- الإخبار بالغيب.

٦- القرآن وأسرار الخليقة.

(١) موجز علوم القرآن، ص٥٧-٥٨.

ويجمعها البيت التالي :

غيــبُ المعــارف مــن أسرار خلقتــه

تــشريعهُ مــتقنٌ معنــاه ذا بــيّنُ

الإعجاز البياني للقرآن الكريم:

«ويشمل بالتركيبة الخاصة المتميزة لألفاظ القرآن ومعانيه، وفي مجموعة العلاقات المجازية والاستعارية والتشبيهية والكنائية والرمزية بين المعاني والألفاظ، وذلك السر الأكبر في إعجاز القرآن»[1].

ولنقدم له بعدة مقدمات.

١ - لا ترادف في القرآن الكريم مع ملاحظة الفروق.

فللماء مثلاً خمسين اسماً تطلق عليه باعتبار تناوب حالاته. وهكذا سائر المترادفات، فإنَّ غالبيتها أوصاف ونعوت وليست في الحقيقة أسماء.

---

(١) نظرات معاصرة في القرآن الكريم، د. محمد حسين الصغير، ص١٧، وأكد أن أول رواد هذا الباب هو أمير المؤمنين عليه السلام مروراً بعلماء البلاغة كالرماني والجرجاني والشريف الرضي، حتى تسلمه الزمخشري في الكشاف فعمق فيه، أمَّا في العصر الراهن فالشيخ أمين الخولي ود. عائشة عبد الرحمن.

والأسد هو الاسم الحقيقي يقال له:

- ❖ الضيغم باعتبار أنّه يملأ فمه عند العض على فريسته.
- ❖ الضرغام: الضاري الشديد المقدام.
- ❖ الغضنفر: الجافي الغليظ المتغضن.
- ❖ الهزبر: الصلب الشديد.
- ❖ العبوس: من قطوب الوجه.
- ❖ والليث: الشدة والقوة[1].

وخالف في ذلك د. صبحي الصالح في كتابه «دراسات في فقه اللغة» حيث أكد فكرة الترادف في سياق الآيات القرآنية باعتبار ذلك يزيد من ثراء اللغة، وقدم شاهداً على رأيه «أقسم وحلف» بأنهما لغتان عربيتان مدلولهما واحد.

وندفع هذه المقولة بالرجوع إلى السياق الخاص للقرآن يقول عز وجل: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ ﴾ ﴿التوبة: ٧٤﴾.

---

(١) تلخيص التمهيد، ج٢، ص٢٠٧–٢٠٨.

وقد ذكر الحلف مختصاً بالكذب والمنافقين، أمَّا القَسَم فقد خص بالصدق والمؤمنين يقول تعالى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ﴿المعارج﴾.

فهناك فرق في الاستعمال.

وقد اهتمت عائشة عبد الرحمن بهذا الشأن، واتسم أسلوبها بالاستقراء الشامل للمفردات التي تتعرض لها، فهي بعد أن تذكر ما ورد في الشعر القديم ممَّا يؤكد الترادف وعدم التفريق بين هاتين الدلالتين في الاستعمال تقول:

«العرب تقول: حلفة فاجر وأحلوفة فاجر، ولم يسمع حلفة بر وأحلوفة صادقة إلاَّ أن تأتي في بيت شعر».

فالشعراء لم يكونوا يفرقون بينهما ولا بأس أن تتخذ من تمحيصها رداً على صبحي الصالح، إذ ترى أن فعل حلف يسند إلى المنافقين في القرآن، وأسند مرة واحدة إلى المؤمنين في قوله تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ﴾ ﴿المائدة: ٨٩﴾ ، فوجب عليهم الكفارة لخطئهم.

وتبرّر ذلك القسم أيضاً على لسان الكفار قائلة: «يسند القسم إلى الضالين حين يكون قَسَمُهُم من امتناع منهم بالصدق قبل أن ينكشف لهم أنهم على ضلال».

ويصبح القسم حسب تعبيرها هنا بمنزلة الحلف كما في قوله عز وجل:

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

﴿الأنعام﴾.

وهذه الآية هي شاهد صبحي الصالح الذي لم ينتبه إلى خصوصية الاستعمال القرآني الذي لا تبديل لكلماته.

وأخيراً فإن الدكتور أحمد ياسوف[1] نسب القول بالترادف إلى سيد قطب في تفسيره في ظلال القرآن عند تفسير الآية:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا ﴾ ﴿البقرة: ١٠٤﴾.

حيث قال صاحب الظلال: إنَّ القرآن «وكفى شر استعمال هذه المفردة عندما انطلقت من ألسنة سفهاء اليهود وأرشدهم إلى مرادف لها في تمام الدلالة لأنهم اقتربوا من معنى الرعونة».

أقول: وهذه النسبة صحيحة حسب قواعد علم المنطق لأن نقيض السالبة الكلية –وهي قولنا لا ترادف في القرآن– هو الموجبة الجزئية. ويبقى أن نقول أن لا ترادف بين كلمتي راعنا التي استعملها اليهود، وتستبطن الرعونة والحمق، أو المسبة بالعبرانية، وبين كلمة أنظرنا من النظرة والمهلة.

---

(١) جماليات المفردة القرآنية، د. أحمد ياسوف، ص٦٤–٦٥.

٢- هل ظواهر القرآن ظنية أم قطعية؟

قد يبدو هذا البحث غريباً، إذ المشهور بين الأصوليين أن ظواهر القرآن -وهي عدا النصوص- ظنية.

وللشيخ المحقق جعفر السبحاني رأي مخالف، عرضه في كتابيه «المناهج التفسيرية في علوم القرآن» و«رسائل أصولية»[1].

والذي دعاه إلى هذا الرأي أنَّ الإعجاز البياني قائم على جمال اللفظ وأناقة الظاهر من جانب، وجمال العرض وسمو المعنى وعلو المضمون من جانب آخر، فلو كانت دلالة القرآن على الجانب الآخر -أي المعنى- دلالة ظنية يصبح القرآن معجزة ظنية تبعاً لأخس المقدمتين.

(١) انظر المناهج التفسيرية: ص٤٩، ورسائل أصولية، ص١٤٩. ونحن نعرض لهذا الرأي لنضعه في دائرة النقاش بين أيدي الباحثين كرأي علمي جدير بالحوار والنقد.

واستدل الشيخ السبحاني بما يلي:

١- أساس المحاورة والمفاهمة بين الناس هو القطع بالمراد من ظواهر الكلام لا الظن به، وإلاَّ لما قام صرح الحياة، فما يتفوه به الطبيب يتلقاه المريض مفهوماً واضحاً لا تردد فيه، والقرآن يصف الإنسان بقوله: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ﴾ ﴿الرحمن﴾، فالإنسان بكلامه يبين مراده بالنص والظاهر معاً، فالقدح في دلالة الظواهر على المعاني، كأنَّه قدح في أبرز صفات الإنسان.

٢- هداية الأنبياء على أساس القطع، فلو كانت دلالة الظواهر على المقاصد دلالة ظنية لعرقلت خطى الهداية والإرشاد، وأصبح عندئذ تعليم الناس وإرشادهم كأمنية غير محققة يقول سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ ﴿إبراهيم: ٤﴾.

٣-الوظيفة الملقاة على عاتق الظاهر عبارة عن إحضار المعاني التي تعلقت بها الإرادة الاستعمالية في ذهن المخاطب سواءً كانت المعاني حقائق أم مجازات، اللهم إلاَّ إذا كان الكلام مجملاً أو متشابهاً، لكن ذلك خارج عن محل البحث.

❖ والذي دعاهم –المشهور– إلى تسمية ذلك الكشف ظنياً يتلخص فيما يلي:

أ- لعل المتكلم لم يستعمل اللفظ في أي معنى.
ب- أو استعمل في المعنى المجازي ولم ينصب قرينته.
ج- أو كان هازلاً في كلامه.
د- أو موريًا في خطابه.
ه- أو لاغياً فيما يلقيه.
و- أو أطلق العام وأراد الخاص.
ز- أو أطلق المطلق وأراد المقيد.. الخ.

إلى غير ذلك من المحتملات التي توجب الاضطراب في كشف المراد الاستعمالي عن المراد الجدي على وجه القطع.

والجواب:

١ - إنَّ علاج هذه الاحتمالات ليس من وظائف الظواهر حتى يوصف كشف الظواهر عن المراد الجدّي لأجلها بالظنية، وذلك لأنَّ الوظيفة الملقاة على عاتق الظواهر هي إحضار المعاني في ذهن المخاطب.

٢ - الاحتمالات الخمسة الأولى موجودة في النصوص، ومع ذلك نرى أنهم يعدونها من القطعيات.

٣ - إنَّ القوم عالجوا هذه الاحتمالات بادعاء وجوه أصول عقلائية دافعة لها ككون الأصل هو كون المتكلم في مقام الإفادة لا الهزل..

بعد ذلك يتعرض الشيخ السبحاني للتوفيق بين رأيه الأصولي والتفسيري هذا، وبين وجود الصفات الخبرية في القرآن التي تدل بظواهرها على التشبيه والتجسيم.

وخلاصته أنَّ هناك فرقاً بين الظهور الجزئي البدوي التصوري، وبين الظهور الجُمَلي النهائي، وبهذا لا نحتاج للقول بالتأويل بمعنى الحمل على خلاف الظاهر.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ﴿الذاريات﴾.

فاليد وإن كانت ظاهرة في العضو الخاص، لكنها في الآية كناية عن القوة والإحكام بقرينة قوله: ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ وكأنه سبحانه يقول: والسماء بنيناها بقدرة لا يوصف قدرها وإنَّا لذوو سعة في القدرة لا يعجزها شيء، أو بنيناها بقدرة عظيمة ونوسعها في الخلقة[1].

٣- زيادة المباني تستدعي زيادة المعاني:

قال الشيخ المحقق محمد هادي معرفة عن هذه القاعدة: إنَّها قاعدة كلية مطردة تدعمها حكمة الوضع، وعليه فكل

---

(١) المناهج التفسيرية: ص٥٧، وللتوسع أكثر انظر الإلهيات والمناهج التفسيرية للشيخ السبحاني.

تصريف في الكلمة أو تغيير في حركتها، فإنما هو للدلالة على معنى جديد لم يكن فيما قبل مثل:

أ- ضرَّ: للدلالة على إيقاع الضرر سواء قصده أم لم يقصده، وأضرَّ: إيقاعه عن عمد وقصد.

ب- ضرَّ، ضارَّ: فالأول إضراره بالفعل، والثاني محاولة إضراره سواء تمكن من الإيقاع به أم لم يتمكن.

ج- خدع، خادع في قوله تعالى: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ ﴿البقرة﴾، أي يحاولون خداعه تعالى والمؤمنين لكنهم فاشلون في هذه المحاولة.

ونقل الشيخ معرفة عن الزمخشري في تفسيره الكشاف قوله: «وفي الرحمن مبالغة ما ليس في الرحيم لأنَّ الزيادة في البناء لزيادة المعاني»[1].

(١) تلخيص التمهيد: ج٢، ص٢٠١-٢٠٢ وتفسير الكشاف: ج١، ص٦.

ولكن في المقابل فإنَّ للسيّد الخوئي ﭬ رأياً مغايراً، إذ قال في البيان عند تعرضه لتفسير الرحمن الرحيم من آية البسملة، وبعد أن بين الحكمة في تأخير الرحيم عن الرحمن بأنَّ هيأة «الرحمن» تدل على عموم الرحمة وسعتها ولا دلالة على أنَّها لازمة للذات فأتت كلمة «الرحيم» بعدها للدلالة على هذا المعنى. وقد خفي الأمر على جملة من المفسرين فتخيلوا أنَّ كلمة «الرحمن» أوسع معنى من كلمة «الرحيم» بتوهم أنَّ زيادة المباني تدل على زيادة المعاني.

وهذا التعليل ينبغي أن يعد من المضحكات، فإنَّ دلالة الألفاظ تتبع كيفية وضعها، ولا صلة لها بكثرة الحروف وقلتها. ورب لفظ قليل الحروف كثير المعنى، وبخلافه لفظ آخر فكلمة حَذِر تدل على المبالغة دون كلمة حاذر، وإنَّ كثيراً ما يكون الفعل المجرد والمزيد فيه بمعنى واحد كفرَّ وأضرَّ[1].

(١) البيان: ص٤٣٨ ويلاحظ هنا أنَّ السيد الخوئي ﭬ يخالف –وبالمثال نفسه– ما ذكره تلميذه الشيخ معرفة حول الفرق بين ضرَّ وأضرَّ.

٤ - الإعجاز البياني يتنافى مع القول بالصرفة وأنَّ القرآن معجز بنظمه لا بالصرفة:

الصرفة لغةً: الصرف: ردَّ الشيء عن وجهه[١].

واصطلاحاً في علوم القرآن:

نظرية في وجه إعجاز القرآن تخالف رأي الجمهور ومؤداها:

«إن الآية والمعجزة في القرآن إنما هي لجهة صرف الناس عن معارضته، صرفهم الله تعالى أن يأتوا بحديث مثله، وأمسك بعزيمتهم دون القيام بمقابلته.

ولولا ذلك لاستطاعوا الإتيان بسورة مثله، وهذا التثبيط في نفسه إعجاز خارق للعادة وآية دالة على صدق نبوته ﷺ[٢].

---

(١) لسان العرب والمعجم الوسيط.

(٢) تلخيص التمهيد: ج٢، ص٧٥.

فمعنى الصرف: «إنَّ الإتيان بمثل القرآن أو سورةٍ واحدة منه محال على البشر لمكان آيات التحدي، وظهور العجز من أعداء العرب منذ قرون، ولكن لا لكون التأليفات الكلامية التي فيها «الآيات» في نفسها خارجة عن طاقة الإنسان، وفائقة عن القوة البشرية مع كون التأليفات جميعاً أمثالاً لنوع النظم الممكن للإنسان، بل لأنَّ الله سبحانه يصرف الإنسان عن معارضتها والإتيان بمثلها بالإرادة الإلهية الحاكمة على إرادة الإنسان، حفظاً لآية النبوة ووقاية لحمى الرسالة»[1].

وقد نجم هذا المذهب في القرن الثالث، وإليه ذهب جماعة من المتكلمين وقد حكي هذا المذهب عن أبي إسحاق نظّام، وهو أقدم من نسب إليه هذا القول وتبعه أبو إسحاق النصيبي، وعباد بن سليمان الصيمري، وهشام بن عمرو الفوطي وغيرهم.

---

(١) تفسير الميزان: ج١، ص٦٩.

واختاره من الإمامية الشيخ المفيد «٣٣٨-٤١٣» في أوائل المقالات، وإن حكي عن غيره.

والسيد المرتضى «٣٥٥-٤٣٦» في رسالته الخاصة بهذا الموضوع التي أسماها بـ«الموضح عن جهة إعجاز القرآن» وهو يقصد بهذه الجهة الصرفة نفسها.

والشيخ الطوسي «٣٨٥-٤٦٠» في شرحه لجمل السيد، وإن رجع عنه في كتابه «الاقتصاد».

وابن سنان الخفاجي «م٤٦١» في كتابه سر الفصاحة[١].

ونسب هذا القول إلى الأشعري فيما حكاه أبو الفضل عياض في الشفاء وهو قول ابن حزم، صرح به في كتاب الفصل، وقد عزاه صاحب المقاصد في شرحه إلى كثير من المعتزلة[٢].

---

(١) الإلهيات: ج٢، ص٢٣٧-٢٣٨.

(٢) تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، ج١، ص١٠٣.

أدلة القائلين بالصرفة[1]:

١ - القادر على الأبعاض قادر على الجملة «وحكم الأمثال فيما يجوز وما لا يجوز واحد».

قالوا: لاشك أنَّ العرب كانوا قادرين على التكلم بمثل مفردات الجمل وقصار تراكيبها مثل «الحمد لله» و«رب العالمين» وهكذا فأجدر بهم أن يكونوا قادرين على تراكيب أكبر وجمل أطول.

وقد أجاب عنه التفتازاني بأنَّ حكم الجملة يخالف حكم الأجزاء، ولو صحَّ ما ذكر لكان كل من آحاد العرب قادراً على الإتيان بمثل قصائد فصحائهم كامرىء القيس وأضرابه.

---

(١) تلخيص التمهيد من ص٧٥-١٠٠ بتصرف منا وترتيب جديد وعنونة ميسرة.

٢- قول ابن حزم أن لا أعجوبة في سرد الأسماء.

لكن يكذبه رائعة «الإطراد» في باب البديع: وهو أن يطرد الشاعر أو المتكلم عند صياغة الكلام إن نظماً أو نثراً في سرد أسماء متعاقبةً من غير كلفةً ولا حشوٍ فارغ.

قال ابن رشيق: فإنَّها إذا أطردت كذلك دلت على قوة طبع الشاعر وقلة كلفته ومبالاته بالشعر.

قال الأعشى:

أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد

وأنت امرؤ يرجو شبابك وائل[1]

٣- قول ابن حزم أيضاً أن لا أعجوبة في سرد حكاية أقوال الآخرين «تحول الممكن إلى معجز».

(١) الوائل: صاحب الحاجة وطالب النجاة من المأزق.

ولعل ابن حزم حسب النقل نقلاً بالحروف، ولاشك أنَّه نقل بالمعنى، لاسيما مع النظر إلى لغاتهم غير العربية، ويدلك عليه سرد قضية واحدة في مواضع من القرآن في مختلف العبارات، وإن كانت في كل مرة ذات مزية حكمية لا تشترك فيها أختها.

٤- تردد بعض الصحابة الأولين في كون بعض الآيات من القرآن الكريم. كما نسب ذلك لابن مسعود في المعوذتين، ولعله كان لرعاية الاحتياط والاحتراز عن أدنى ملابسة. على أنَّ الإعجاز في جميع مراتبه وفي جميع الآيات ليس مما يظهر لكل أحد على سواء[١].

٥- السبب الخفي بنظر الشيخ معرفة[٢]:

(١) هذا الجواب نقله الشيخ معرفة عن صاحب شرح المقاصد، ج٢، ص١٨٤، ونحن لا نرتضيه بل ننكر، مثل هذه النسبة لابن مسعود من رأس، ولعل سبب هذه النسبة له هي موقفه من الحزب الحاكم آنذاك سيما عثمان وخلافه معه مشهور وفي الكتب مسطور.

(٢) سيأتي من العلامة الطباطبائي أسباب أخرى ألطف.

يرى الشيخ «معرفة» أنَّ هناك سبباً آخر وراء ما ذكروه لاسيما وأصحاب هذا القول هم جهابذة أقحاح وأئمة نقد وتمحيص ليسوا أهل تعسفٍ في الرأي أو وهن في العقيدة والاختيار، هذا السبب هو مواجهتهم لمن قصروا وجه الإعجاز في جانب لفظ القرآن وحروفه وجودة سبكه وأسلوبه، وهو جانب جد خطير إلاّ أنَّه ليس بمثابة بحيث يخرج عن حد المعتاد غير الممكن على فصحاء الكلام وبلغاء البيان.

غير أنَّ جهة الإعجاز البياني للقرآن لا تنحصر في ذلك كما سيأتي.

٦- ومن أدلتهم من القرآن قوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ﴿الأعراف: ١٤٦﴾.

ولكن المراد من الآية، والله أعلم صرف المتكبرين بالطبع على قلوبهم وخذلانهم فلا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها.

وقيل: معناه سأصرفهم عن إبطالها وإن اجتهدوا كما اجتهد فرعون في إبطال آية موسى إلا ان الله أعلى أمره[1].

(١) تفسير جوامع الجامع للطبرسي، ج١، ص٧٠٣.

تقرير العلامة الطباطبائي لأدلة الصرفة ودفعه لها:

١ - لا معنى لكون التأليف الكلامي بالغاً إلى مرتبة معجزة للإنسان، ووضع الكلام مما سمحت به قريحة الإنسان، فكيف يمكن أن يترشح من القريحة ما لا تحيط به والفاعل أقوى من فعله منشئُ الأثر محيط بأثر:

٢- وبتقريب آخر: الإنسان هو الذي جعل اللفظ علامة دالة على المعنى لضرورة الحاجة الاجتماعية إلى تفهيم الإنسان ما في ضميره لغيره، فخاصة الكشف عن المعنى في اللفظ خاصة وصفية اعتبارية مجعولة للإنسان، ومن المحال أن تتجاوز هذه الخاصة المترشحة عن قريحة الإنسان حد قريحته فتبلغ مبلغاً لا تسع طاقة القريحة.

٣- مضافاً إلى أنَّ التراكيب الكلامية لو فرض أن بينها تركيباً بالغاً حد الإعجاز كان معناه أنَّ كل معنى من

المعاني المقصودة ذو تراكيب كلامية مختلفة في النقص والكمال والبلاغة وغيرها، وبين تلك التراكيب تركيب هو أرقاها وأبلغها لا تسعها طاقة البشر، وهو التركيب المعجز ولازمه أن يكون في معنى مطلوب تركيب واحد إعجازي، مع أنَّ القرآن كثيراً ما يورد في المعنى الواحد بيانات مختلفة وتراكيب متفرقة، وهذا القصد واضح لا ينكره، ولو كانت تراكيبه معجزة لم يوجد منها في كل معنى مقصود إلاً واحد لا غير.

قال السيد العلامة: وهذه الشبهات هي الموجبة لجمع من الباحثين في إعجاز القرآن في بلاغته أن يقولوا بالصرفة، ثم شرع السيد العلامة برده قائلاً: وهذا قول فاسد لا ينطبق على ما تدل عليه آيات التحدي بظاهرها:

١ - كقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ ﴿هود﴾.

فإن الجملة الأخيرة ظاهرة في أنَّ الاستدلال بالتحدي إنَّما هو على كون القرآن نازلاً لا كلاماً تقوّله رسول الله ﷺ وأنَّ نزوله إنما هو بعلم الله لا بإنزال الشياطين.

٢- وكذا قوله تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ ﴿يونس: ٣٨ ـ ٣٩﴾.

فإنَّها ظاهرة في أنَّ الذي يوجب استحالة إتيان البشر بمثل القرآن وضعف قواهم وقوى كل من يعينهم على ذلك من تحمل هذا الشأن هو أنَّ للقرآن تأويلاً لم يحيطوا بعلمه فكذبوه ولا يحيط به علماً إلاّ الله..

٣- وكذا قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ ﴿النساء﴾ فإنَّه ظاهر في أنَّ الذي يعجز الناس عن الإتيان بمثل القرآن، إنَّما هو كونه في نفسه على صفة عدم

الاختلاف لفظاً ومعنى، ولا يسع لمخلوق أن يأتي بكلام غير مشتمل على الاختلاف.

ثانياً: وأمَّا الإشكال باستلزام الإعجاز من حيث البلاغة للمحال بتقريب أنَّ البلاغة من صفات الكلام الموضوع، ووضع الكلام من آثار القريحة الإنسانية، فلا يمكن أن يبلغ من الكمال حداً لا تسعه طاقة القريحة، وهو مع ذلك معلول لها لا لغيرها.

فالجواب عنه: إنَّ الذي يستند من الكلام إلى قريحة الإنسان إنما كشف اللفظ المفرد عن معناه، وأمَّا سرد الكلام ونضد الجمل بحث يحاكي جمال المعنى المؤلف وهيأته على ما هو عليه في الذهن بطبعه حكاية تامة أو ناقصة وإراءة واضحة، وكذا تنظيم الصورة العلمية في الذهن بحيث يوافق الواقع في جميع روابطه ومقدماته ومقارناته ولواحقه، أو في كثير منها أو بعضها دون بعض، فإنما هو أمر لا يرجع إلى وضع الألفاظ، بل إلى نوع مهارة في صناعة البيان وفن البلاغة تسمح به القريحة في سرد الألفاظ ونظم الأدوات

اللفظية، ونوع لطف في الذهن يحيط به القوة الذاهنة على الواقعة المحكية بأطرافها ولوازمها ومتعلقاتها.

فهنا جهات ثلاث يمكن أن تجتمع في الوجود أو تفترق:

١- فربما أحاط إنسان بلغة من اللغات فلا يشذ عن علمه لفظ، لكنه لا يقدر على النهجي والتكلم.
٢- وربما تمهَّر الإنسان في البيان وسرد الكلام، لكن لا علم له بالمعارف والمطالب فيعجز عن التكلم فيها بكلام حافظ لجهات المعنى حاكٍ لجمال صورته التي هو علّها في نفسه.
٣- وربما تبحّر الإنسان في سلسلة من المعارف والمعلومات ولطفت قريحته ورقت فطرته، لكن لا يقدر على الإفصاح عما في ضميره وعيٌ عن حكاية ما يشاهده من جمال المعنى ومنظره البهيج.

فهذه أمور ثلاثة أولها راجع إلى وضع الإنسان بقريحته الاجتماعية.

والثاني والثالث راجعان إلى نوع من لطف القوة المدركة، ومن البيِّن أنَّ إدراك القوى المدركة منَّا محدودة مقدرة لا تقدر على الإحاطة بتفاصيل الحوادث الخارجية والأمور الواقعية بجميع روابطها، فلسنا على أمن من الخطأ قط في وقت من الأوقات، ومع ذلك فالاستكمال التدريجي الذي في وجودنا أيضاً يوجب الاختلاف التدريجي في معلوماتنا أخذاً من النقص إلى الكمال..

وعلى هذا فلو عثرنا على كلام فصل لا هزل فيه «وجدَّ الهزل هو القول بغير علم محيط» ولا اختلاف يعتريه لم يكن كلاماً بشرياً وهو الذي يفيده القرآن بقوله:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ ﴿النساء: ٨٢﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ ﴾ ﴿الطارق﴾.

أنظر إلى موضع القسم بالسماء والأرض المتغيرتين والمعنى المقسم به في عدم تغيره واتكائه على حقيقة ثابتة هي تأويله.

وقوله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ ﴿البروج﴾.

وقوله تعالى: ﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ ﴿الزخرف﴾.

وقوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ ﴿الواقعة﴾.

فهذه الآيات ونظائرها تحكي عن اتكاء القرآن في معانيه على حقائق ثابتة غير متغيرة ولا متغير ما يتكي عليها.

إذا عرفت ما مرَّ علمت أن استناد وضع اللغة إلى الإنسان لا يقتضي أن لا يوجد تأليف كلامي فوق ما يقدر عليه الإنسان الواضع له، وليس ذلك إلاَّ كالقول بأنَّ القين الصانع للسيوف يجب أن يكون أشجع من يستعملها وواضع النرد والشطرنج يجب أن يكون أمهر من يلعب بهما، ومخترع العود يجب أن يكون أقوى من يضرب بها.

فقد تبيَّن من ذلك كلّه:

١- أنَّ البلاغة التامة معتمدة على نوع من العلم المطابق للواقع من جهة مطابقة اللفظ للمعنى ومن جهة مطابقة المعنى المعقول للخارج الذين يحكيه الصورة الذهنية..

٢- وأنَّ أمر البلاغة المعجزة لا يدور مدار اللفظ، بل المدار هو المعنى الحافظ لجميع الذهن والخارج[1].

---

(١) تفسير الميزان، ج١، ص٦٩-٧٣.

ثالثاً: ولو كان وجه الإعجاز الصرفة لكان الركيك من الكلام أبلغ من باب الإعجاز[1].

---

(١) تفسير الميزان: ج١٠، ص١٦٣، وقد وضح مراد العلامة الشيخ السبحاني بقوله: «فلو كان وجه الإعجاز في نكتة الصرفة، لكفى في ذلك أن يكون القرآن كلاماً مبذولاً ومرذولاً للغاية وركيكاً حدّ النهاية، لكن كلما أراد سفلة الناس وأوباشهم الذين يقدرون على صنع مثل تلك الكلم الإتيان بمثله حال سبحانه بينهم وبين مباراته، وهو كما ترى لا يتفوه به من له إلمام بهذه المباحث»، الإلهيات، ج٢، ص٣٤٧.

تفسيرات القول بالصرفة:

التفسير الأول: سلب دواعي المعارضة وصرف إرادتهم.

التفسير الثاني: سلب العلوم والوسائل.

التفسير الثالث: المنع بالإلجاء والقهر وسلب القوى «مع وجد الدواعي والوسائل» والمعقول من هذه التفاسير نظراً لموقع أصحاب هذا الرأي من الفضيلة والكمال، هو التفسير الوسط لكن بمعنى أنهم افتقدوا وسائل المعارضة لقصورهم بالذات من جانب، وشموخ موضع القرآن من جانب آخر[1].

---

(١) تلخيص التمهيد: ج٢، ص٧٧-٧٨.

ردود العلماء على القول بالصرفة:

تقدم منّا في البحث السابق طرفاً من ذلك لاسيّما ما تقدم في كلام كل من العلامة الطباطبائي والشيخ محمد هادي معرفة، ونحن هنا نزيدك بياناً باستقصاء كلمات القوم في دحض هذه الشبهة فنقول والله المستعان:

١ - مخالفة هذا المذهب لظاهرة التحدي القائمة على المباهاة:

فالمباهاة بالصنيع إنما تتعقل إذا كان الصنيع ذاته مشتملاً على مزية خارقة وبديعة عجيبة ليس إلاّ. ولا مباهاة بصنيع لا ميزة فيه سوى سلطة صانعة على منع الآخرين قهرياً من مماثلته، كمن باهى بوضع يده على رأسه، أو برماية هدف

دقيق ثم منع الآخرين من وضع يدهم على رؤوسهم أو سَلَبَهُم بنادقهم.

٢- ينبغي أن يتعجبوا من أنفسهم هذا التحول المفاجئ لهم بالأمس كانوا قادرين واليوم أصبحوا عاجزين ولأعلنوا ذلك في الناس ليلتمسوا العذر لأنفسهم وليقللوا من شأن القرآن في ذاته، إنّ شهادتهم بعظمة القرآن لأكبر دليل على ما لمسوه من شموخ في جوهر القرآن ذاته[١].

٣- لا مباهاة مع مسلوب القدرة هو والميت سواء، ولا تحدي مع الأموات قلوا أم كثروا، فإن كثرتهم لا تجدي شيئاً بعد كونه من ضم الحجر إلى المدر ولا حراك في الجماد[٢].

---

(١) وقصة الوليد بن المغيرة وشهادته مشهورة ومنها قوله «إنَّ أعلاه لمورق وإنَّ أسلفه لمغدق، وإنَّ له لطلاوة وإنَّ عليه لحلاوة، وإنَّه يعلو ولا يعلى عليه».

(٢) تلخيص التمهيد، ج٢، ص٩٩.

٤- الصرفة التي يقولون بها إن كان معناها أنّ الله قادر على أن يقدر بشراً على أن يأتي بمثل القرآن، ولكنه تعالى صرف هذه القدرة من جميع البشر ولم يؤتها لأحد منهم فهو معنى صحيح، ولكنه لا يختص بالقرآن، بل هو جارٍ في جميع المعجزات، وإن كان معناها أنّ الناس قادرون على أن يأتوا بمثل القرآن، ولكن الله صرفهم عن معارضته، فهو واضح البطلان لأنّ كثيراً من الناس تصدّوا لمعارضة القرآن فلم يستطيعوا ذلك واعترفوا بالعجز.

٥- ولو كان إعجاز القرآن بالصرفة لوجد في كلام العرب السابقين مثله قبل أن يتحدى النبي البشر ويطالبهم بالإتيان بمثل القرآن، ولو وجد ذلك لنقل وتواتر لتكثر الدواعي إلى نقله، وإذ لم يوجد ولم ينقل كشف ذلك عن كون القرآن بنفسه إعجازاً إلهياً خارقاً عن نطاق البشر[1].

---

(١) البيان، ص٨٣.

اللـهم إلاّ إن يقـال أنّهـم صُـرفت هممهـم حتـى عـن هـذا المقدار -قبل البعثة- وهو كما ترى[1].

٦- استلزم ذلك تراجع حال العرب في الفصاحة والبلاغة وفي جـودة الـنظم وشـرف الأسـلوب والقريحـة وفي أشـعارهم وخطـبهم، وأن تكـون أشـعار شـعراء الـنبي الـتي قالوهـا في مدحـه وفي الـرد علـى المشركين ناقـصة متقاصـرة عـن شـعرهم في الجاهليـة، وأن يكـون شـعر حسان بعد الإسلام دون شعره قبله والكل كما ترى.

٧- والظاهر من مـذهب الـصرفة أن النّقـصان حـدث فـيهم مـن غـير أن يـشعروا بـه، ولازمـه أن لا تـتم الحجـة عليهم.

٨- القائل بدخول النقصان على قرائح العرب، إما أن يستثني النبي من ذلك أو لا، فعلى الأول يجب أن يقول بأنّ النبي عندما يتلو عليهم قوله تعالى:

(١) الإلهيات: ج٢، ص٣٤٥.

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨ ﴾

﴿الإسراء﴾ .

كان يستطيع أن يأتي بمثل القرآن ويقدر عليه.

وعلى الثاني يلزم أنّ النبوة صارت وسيلة لنقصان مرتبة النبي في حلبة الفصاحة والبلاغة، اللهم إلاّ أن يقولوا بأن النبي كان دونهم في الفصاحة والبلاغة قبل التحدي مع أنَّ الأخبار تحكي عنه أنّه كان أفصح العرب[1].

٩- وقال الطاهر بن عاشور «وقد بدا لي دليل قوي على هذا -أي دحض الصرفة- وهو بقاء الآيات التي نسخ حكمها وبقيت متلوة من القرآن ومكتوبة في المصاحف، فإنَّها لما نسخ حكمها لم يبق وجه لبقاء تلاوتها، وكتبها في المصاحف، إلا ما في مقدار مجموعها من البلاغة بحيث يلتئم منها مقدار ثلاث

(١) المصدر السابق: ص٣٤٨-٣٤٩.

آيات متحدى بالإتيان بمثلها، مثال ذلك آية الوصية في سورة العقود»[1].

١٠- القول بالصرفة يتعارض مع قوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ ﴾ لأنه لا يقال في الجماعة إذا امتنع عليها الشيء إنَّ بعضها كان ظهيراً لبعض لأنَّ المعاونة والمظاهرة إنَّما تمكّن مع القدرة ولا تصحّ مع العجز والمنع[2].

تحقيق الحال حول اثنين ممن نسبت لهم القول بالصرفة:

١- الجاحظ وهو من المعتزلة، وقد أثير حول رأيه في الإعجاز كلام كثير هل الإعجاز عنده بالصرفة أو بالنظم أو بهما معاً.

وكنا قد وعدناك بتحقيق الحال بشأن الجاحظ، ونحن هنا نفي بما وعدناك هناك.

---

(١) التحرير والتنوير: ج١، ص١٠٤.

(٢) المغني للقاضي عبد الجبار، ونحن نقلناه عن نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي القديم، ص٦٧.

١- فبعض الباحثين كالدكتور عبد الكريم الخطيب في كتابه الإعجاز في دراسات السابقين، يرى أنَّ الإعجاز عنده في النظم فقط، وإن كان هذا القول ليس رأياً صريحاً، بحيث جاءت أقواله متناقضة في ثنايا كتبه، والمشكلة أنّ الكتاب الوحيد الذي يتوقع أن يكون فيه ذلك وهو «نظم القرآن» لم يصل إلينا حتى نستطيع الحكم من خلاله على رأي الجاحظ كاملاً[1].

٢- وبالمقابل فإن مصطفى صادق الرافعي في كتابه «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية» يرى أن رأي الجاحظ في الإعجاز ليس مقصوراً على النظم فقط –كما أشار الأستاذ الخطيب– فقد قال بالصرفة أيضاً، ووقع بذلك في التناقض والاضطراب.

٣- وقد جاء في كتاب «الحيوان» للجاحظ ما يدل على قوله بالصرفة، ففي سياق ذكر الدهريين وإنكارهم خبر بلقيس والهدهد وسليمان احتجوا لذلك بأن سليمان عظيمٌ ملكه فيكف يجهل خبر بلقيس؟ وأجاب

---

(١) نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي القديم، ص٦١–٦٥.

الجاحظ بأنّ هذا معقول لو أن الله سبحانه خلى الدنيا وتدبير أهلها ومجاري أمورها وعاداتها، ولكنه سبحانه يتدخل فيرفع عن الأوهام أشياء، ويصرفها عن الفتن فيحدث ما جرى به قدره.

ثم يذكر الجاحظ عدم معرفة يعقوب بمكان يوسف، وعدم معرفة بني إسرائيل للطريق أثناء التيه، ثم قال:

«ومثل ذلك ما وقع من أوهام العرب وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن بعد أن تحداهم الرسول ﷺ بنظمه، ولذلك لم نجد أحداً طمع فيه ولو طمع فيه لتكلفه، ولو تكلف بعضهم فجاء ﷺ بأمرٍ فيه أدنى شبهة لعظمت القصة على الأعراب، وأشباه الأعراب والنساء، وأشباه النساء ولألقى ذلك للمسلمين عملاً ولطلبوا المحاكمة والتراضي ببعض العرب ولكثر القيل والقال...».

ويتساءل الجاحظ في الجزء السادس على لسان المتكلمين لاستراق السمع قائلاً:

«وبعد فأي عاقل يسر بأن يسمع خبراً وتقطع يده فضلاً عن أن تحرقه النار؟ وبعد فأي خبر في ذلك اليوم؟ وهل يصلون إلى الناس حتى يجعلوا ذلك الخبر سبباً إلى صرف الدعوى؟ قيل لهم: فإنّا نقول بالصرفة في عامة هذه الأصول، وفي هذه الأبواب كنحو ما ألقي على قلوب بني إسرائيل وهم يجولون في التيه..»[1].

وبعض السؤال هل الصرفة عند الجاحظ تعني ما تعنيه الصرفة عند النظّام؟ وإذا كان الأمر كذلك فلم رد الجاحظ على نظّام مذهبه؟

الجواب: إن الصرفة عند الجاحظ مباينة للصرفة عند النظّام.

١ - فعند النظّام لولا الصرفة لجاءوا بمثل القرآن، وبما هو أحسن منه نظماً وتأليفاً.

---

(١) الحيوان ٦/ ١٦٨.

٢- أما عند الجاحظ فلولا الصرفة لطمعوا في الإتيان بمثله ولتكلفه بعضهم فجاء بأمر فيه أدنى شبهة ولعظمت القصة على الأعراب وأشباه الأعراب والنساء وأشباه النساء ولألقى ذلك للمسلمين عملاً ولطلبوا المحاكمة والتراضي ببعض العرب ولكثر القيل والقال.

فالصرف عنده يعني قطع باب اللجاجة بالباطل. والصرفة عنده لا تنفي عن القرآن روعته البلاغية ودرجته العالية في سلم الفصاحة والبيان وقد أكّد هو هذه الحقيقة أكثر من مرة، فذهب إلى أن وجه الإعجاز في القرآن هو النظم.

وخلاصة الكلام أن الجاحظ ليس مبرءاً من القول بالصرفة، كما لا تنكر عليه إعجابه ببلاغة القرآن ونظمه، وقد أشاد بذلك في مواضع كثيرة من مؤلفاته، فالإعجاز عنده إذاً إعجاز بالنظم والصرفة معاً.

٢- السيد الشريف المرتضى من الإمامية:

تقدم منا القول بنسبة مذهب الصرفة إلى السيد المرتضى علم الهدى ولكن الأستاذ توفيق الفكيكي البغدادي حاول محاولة مشكورة بشأن الدفاع عن موقف السيد في مذهب الصرفة، إذ استبعد أن يأخذ مثله موضعاً يبتعد عن موضع الشيعة الإمامية وإجماع محققيهم، وهو رأسهم وسيدهم وكذا شيخه أبو عبدالله المفيد الذي هو أستاذ الكل ومفخرة المتكلمين.

قال: إنَّ أقوال أئمة الإمامية المعتمدة لا تختلف عن كلام أهل التحقيق من أساطين العلم وزعماء البيان في حقيقة الإعجاز حتى لقد استشهد بقولهم «القول بالصدفة كالقول بالصرفة» في الامتناع كما نبه عليه العلامة الحجة الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء...

قال: والذي نحتمله، بل ونعتقده أن الشيخ المفيد معروف بقوة الجدل والتمرس بقوة المناظرة، وكان كسقراط

يلقي على تلاميذه مسائل دقيقة ويناقشهم فيها لاختبار عقولهم، ولاسيما شبهات المعتزلة كآراء النظّام وأصحابه القائلين بالصرفة وهي إحدى المسائل التي ناظر بهذا أقطاب المعتزلة فلعله وقع في نفوس البعض أنَّه يقول بها وهو اشتباه لا يستند إلى تحقيق.

وهكذا احتمل العلامة السيد هبة الدين الشهرستاني بشأن الشريف المرتضى، أنَّه كان معروفاً بقوة الجدل والتحول في حوار المناظرين إلى هنا وهناك، فلم يعلم كونها عقيدة له ونظرية ثابتاً عليها[1].

أقول: ما ذكره الأستاذ الفكيكي والسيد الشهرستاني — كما لا يخفى — محض ظنون واحتمال يدفعها صريح كلمات السيد المرتضى في رسائله، بل إنه ألف كتاباً خاصاً في ذلك سماه الموضح عن جهة إعجاز القرآن «الصرفة»[2] بل أنَّه

---

(١) تلخيص التمهيد ص٨٥-٨٦.

(٢) طبع مؤخراً وكانت الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ تحقيق محمد رضا الأنصاري القمي.

جعل من ضمن أبوابه «فصلاً في بيان ما يلزم مخالفي الصرفة».

وفصلاً في الرد على القاضي عبد الجبار المعتزلي صاحب المغني الذي أنكر الصرفة.

فخلاصة القول: إنَّ الصرفة كما لاحظنا لم تقتصر على فرقة من المسلمين بل قال بها علماء من الأشاعرة، ومن المعتزلة، ومن الإمامية، وهي رأي علمي اعتقادي كان دافعاً ومثاراً للبحث والأخذ والرد، ورغم خطأ هذا الرأي فأصحابه انطلقوا من نية سليمة، وكلهم مجمعون على إعجاز القرآن ومصدره الإلهي نعم يفترق هؤلاء عن باقي المحققين في كون الإعجاز مصدره خارجي وهو الإرادة الإلهية لا داخلي بما أودعه الله سبحانه فيه نظم وبيان وفصاحة.

ولا يضر الإمامية وجود قائل، أو أكثر بالصرفة فمن علمائنا مثلاً -وهو الصدوق- قد ذهب إلى سهو النبي

«بنحو الإسهاء عنه تعالى للمصلحة» ، بل جعل القول بعدم سهوه أول خطوة في الغلو، ومع ذلك فالسائد اليوم بين علماء مذهب أهل البيت خلافه.

التصوير الفني في القرآن

يعرِّف سيد قطب التصوير الفني بأنه «الأداة المفضلة في أسلوب القرآن» فهو يعبر بالصورة المحسوسة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيأة أو حركة، وإذا بالحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية..

إنها الحياة هنا وليست حكاية الحياة, فإذا ما ذكرنا أنَّ الأدلة التي تصور المعنى الذهني والحالة النفسية، وتشخيص النموذج الإنساني، أو الحادث المروي، إنما هي ألفاظ جامدة لا ألوان تصوّر، ولا شخوص تعبّر، أدركنا بعض أسرار الإعجاز في تعبير القرآن[1].

---

(١) التصوير الفني في القرآن, سيد قطب ص٣١.

ثم شرع سيد قطب في ضرب الأمثلة على مدعاه مبتدئاً بالمعاني الذهنية التي تخرج في صورة حسية مستعرضاً كيفية بيان القرآن لعدم قبول الكافرين عند الله أو دخولهم الجنة بقوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾ «الأعراف: ٤٠».

«ويدعك ترسم لخيالك صورة لتفتح أبواب السماء، وصورة أخرى لولوج الحبل[1] في سم الخياط» ويختار من أسماء الحبل الغليظ اسم «الجمل» خاصة في هذا المقام ويدع للحس أن يتأثر عن طريق الخيال بالصورتين ما شاء له التأثر، وليستقر في النهاية معنى القبول ومعنى الاستحالة في أعماق النفس، وقد ورد إليها من طريق العين والحس –

(١) الظاهر من مراجعة التفاسير أنَّ المشهور بينهم أنَّ الجمل هو الحيوان المعروف لِعظَم بدنه استحال دخوله في ثقب الإبرة انظر تفسير الميزان ج ص١٩. نعم نقل صاحب تفسير الكشاف القول بأنَّ الجمل هو الحبل عن ابن عباس الكاشف، ج، ص٢٠.

تخييلاً– وعبرا إليها من منافذ شتى في هينة وتؤدة لا من منفذ الذهن وحده في سرعة الذهن التجريدية.

١- ويريد أن يبين أنَّ الله سبحانه سيضيع أعمال الذين كفروا كأن لم تكن قبل شيئاً، وستضيع إلى غير عودة، فلا يملكون لها رداً فيقدم هذا المعنى مصوراً في قوله: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ ﴿الفرقان﴾.

ويدعك تتخيل صورة الهباء المنثور فتعطيك معنى أوضح وأكد للضياع الحاسم المؤكد.

٢- أو يرسم هذه الصورة المطولة بعض الشيء لهذا المعنى نفسه: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ ﴿إبراهيم: ١٨﴾.

فتزيد الصورة حركة وحياة بحركة الريح في يوم عاصف، وتذر والرماد تذهب به بدداً إلى حيث لا يجتمع أبداً، ويستمر سيد قطب في سرد الأمثلة على المعاني الذهنية. لينتقل بعدها لتصوير الحالات النفسية والمعنوية قائلاً:

١- يريد أن يبرز الحيرة التي تنتاب من يشرك بعد التوحيد، ومن يتوزع قلبه بين الإله الواحد والآلهة المتعددة ويفرق إحساسه بين الهدى والضلال فيرسم هذه الصورة المحسوسة المتخيلة.

﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ﴾ ﴿الأنعام: ٧١﴾.

فتبرز صورة هذا المخلوق التعيس الذي استهوته الشياطين في الأرض «ولفظ الاستهواء لفظ مصور لمدلوله» ويا ليته يتبع هذا الاستهواء في اتجاهه فيكون له راحة ذي المقصد الواحد – ولو كان في طريق الضلال، ولكن هناك من

الجانب الآخر إخوان له يدعونه إلى الهدى وينادونه «ائتنا» وهو بين هذا الاستهواء وهذا الدعاء «حيران» موزع القلب لا يدري أي الفريقين يجيب ولا أي الطريقين يسلك، فهو قائم هناك شاخص متلفت.

٢- ويريد أن يوضح حالة تزعزع العقيدة حيث لا يستقر الإنسان على يقين ولا يحتمل ما يصادفه من الشدائد بقلب راسخ، ولا يجعل عقيدته في معزل عن ملابسات حياته بعيدة عن ميزان الربح والخسارة فيرسم لهذا التزعزع صورة تهتز وتترنح وتوشك على الانهيار: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَ ﴾ «الحج: ١١».

إن الخيال ليكاد يجسم هذا الحرف الذي يعبد الله عليه هذا البعض من الناس وإنَّه ليكاد يتخيل الاضطراب الحي في وقفتهم، وهم يتأرجحون بين الثابت والانقلاب..

ويستمر سيد قطب عارضاً لقوله تعالى كذلك: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ ﴿آل عمران: ١٠٣﴾ وما فيها من تصوير فني.

ثم ينتقل لتصوير القرآن للنموذج الإنساني، والحوادث الواقعة، والأمثال المضروبة، والقصص المروية، فراجع كتابه القيّم إن شئت الاستزادة.

وعن قيمة هذا الكتاب وهذه المحاولة الفريدة من سيد قطب ندع الكلام للشيخ الدكتور صبحي الصالح رحمه الله إذ يقول: «ولعل الغاية التي انتهى إليها سيد قطب من فهم الأسلوب القرآني أن تكون أصدق ترجمة لمفهومنا الحديث لإعجاز القرآن لأنها تساعد جيلنا الجديد على استرواح الجمال الفني الخالص في كتاب الله وتمكن الدارسين من استخلاص ذلك بأنفسهم والاستمتاع به بوجدانهم وشعورهم»[1].

---

(١) مباحث في علوم القرآن د. صبحي الصالح ص٣١٩.

مختارات من جماليات المفردة القرآنية[1]

أولا: إسهام المفردة القرآنية في الجمال البصري

١ - إسهام المفردة في التجسيم :

وهو اصطلاحاً «ميل معاكس للتجريد أي إبراز الماهيات والأفكار العامة والعواطف في رسوم وصور تشابيه محسوسة هي في واقعها رموز معبرة عنها».

ولا نجده متداولاً لدى الأسلاف، إنما وقعوا على مفهومه، وإن اختلفت عنا تسمياتهم فهو عندهم تشبيه المعقول بالمحسوس.

فالرماني مثلاً يقول في الآية الكريمة : ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖ﴾ ﴿إبراهيم: ١٨﴾ .

---

(١) ملخصاً من كتاب جماليات المفردة القرآنية للدكتور أحمد ياسوف.

بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه.

والباقلاني جاء في كتابه إعجاز القرآن «ومما يصور لك الكلام الواقع في الصفة تصوير ما في النفس، وتشكيل ما في القلب حتى تعلمه كأنك مشاهده وإن كان يقع بالإشارة، ويحصل بالدلالة والأمارة قوله تعالى:

﴿ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا ﴾ ﴿البقرة: ٢٥٠﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠ ﴾ ﴿الشعراء﴾ .

ويمكن أن نقول إن جمال «أفرغ» يكمن في تشبيه النفوس بالأوعية الفارغة الظامئة إلى الصبر الذي يسكب بروية ليس فيها قوة الصب. وكذلك تجسم كلمة «منقلبون» في قوة حركتها سرعة الانقلاب. واتجاه السحرة إلى الخالق اتجاهاً كاملاً يعبّر عنه الانقلاب وليس فيه ذبذبة.

ومن المحدثين: فإنَّ سيد قطب في كتبه الثلاثة[1] هو خير من يقدم فيضاً من التحليل الفني للمفردة المجسمة.

وكذلك أحمد بدوي في كتابه «من بلاغة القرآن».

٢- مفردات الطبيعة والأحياء:

أ- مفردات الطبيعة:

كقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ ﴿القمر﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ ﴿الكهف: ٢٩﴾.

يقول ابن ناقيا البغدادي في كتابه «الجمان في تشبيهات القرآن»: «فلما كانوا يلجئون إلى ورود هذه المياه، ويلقون العناء بشربها، والكلفة في تناولها، وكأنَّ القرآن قد نزل بلسانهم، وعلى ما عهد في شأنهم ذكر الله تعالى لهم من

---

(١) في ظلال القرآن. التصوير الفني في القرآن. مشاهد القيامة.

العذاب الذي أعده للظالمين ما يكون في بعض أحوالهم مثال له، فيذكرون الكثير باليسير، والغائب بالحاضر، وكما خوفوا بشرب هذا الماء، فكذلك شوقوا إلى إنها الجنة ومائها وسلسبيلها وتسنيمها ليروا أنَّ ذلك أنفس بالقياس إلى ما وصفوه في أشعارهم».

ويقول الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ ﴿البقرة﴾.

«شبه دين الإسلام بالصيب لأنَّ القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر. وما يتعلق به في شبه الكفار بالظلمات، وما فيه من الوعد والوعيد بالبرق. وما يصيب الكفرة من الأفزاع والبلايا والفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق».

ومن المحدثين تناول أحمد بدوي الموج في آيتين من القرآن ودقته في اختيار ألفاظه فقال: «وهي تجري بهم في موج كالجبال».

وقال: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ﴾

﴿لقمان: ٣٢﴾ .

وسر هذا التنوع أنّ الهدف في الآية الأولى يرمي إلى تصوير الموج عالياً ضخماً مع أنَّ السفينة «سفينة نوح» محوطة بالعناية الإلهية فليست في خطر الغرق. أمَّا الآية الثانية فتصف قوماً يذكرون الله عند الشدة وينسونه عند الرخاء ألا ترى أن الموج يكون أشد إرهاباً وأقوى تخويفاً إذا هو ارتفع حتى ظلّل الرؤوس».

ب- مفردات الأحياء:

قال تعالى: ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ ﴾ ﴿النحل﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ ﴿الأنعام: ٣٨﴾.

وقال تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ ﴿الأعراف: ١٧٦﴾.

وفي هذه الآية تُنتقى حالة خاصة من تصرفات الكلب لتمثل ديمومة وشناعة المرتدين المنافقين وطول ألسنتهم وتلاعبهم بالكلمات.

ويقول الجاحظ في كتابه الحيوان عن المنافق: «فكان ذلك دليلاً على ذم طباعه والإخبار عن تسرعه وبذائه وعن جهله في تدبيره وتركه وأخذه».

ويقول الدكتور نور الدين عتر في تفسير الآية: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ ﴿لقمان﴾:

«صورة منفرة غاية التنفير تزيدها بشاعةً صيغة الجمع «الحمير» وتوحيد كلمة «صوت» الذي يدل على صوت هذا الجنس البالغ غاية بسبب ارتفاعه وصخبه».

٣- إسهام المفردة في التشخيص:

وهو «إبراز الجماد، أو المجرد من الحياة من خلال الصورة بشكل متميز بالشعور والحركة والحياة».

قال تعالى: ﴿ إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ ﴾ «الملك».

يقول الشريف الرضي «وصف النار بصفة المغيظ الغضبان الذي من شأنه أن يبالغ في الانتقام، ويتجاوز الغايات في الإيقاع والإيلام».

ولا نعدم مثل هذا التعمق لدى الزمخشري الذي أشار إلى رغبة المغتاظ في تقطيع أعضائه، وكأنه يتقطع ويمزق ما عليه. وكذلك في قوله تعالى:

﴿ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ۝١٨ ﴾ «الأنبياء: ١٨».

يقول الشريف الرضي «الدمغ إنما يكون عن وقوع الأشياء الثقال، وعن طريق الغلبة والاستعلاء، فكأن الحق أصاب دماغ الباطل فأهلكه».

ثانيا: إسهام المفردة القرآنية في الجمال السمعي

١ - الانسجام بين المخارج :

كان ابن سنان الخفاجي يرى فصاحة المفردة في تباعد المخارج ، لأنَّ الحروف أصوات تجري من السمع مجرى الألوان من البصر. ولا شكَّ أنَّ الألوان المتباينة إذا جمعت كانت في المنظر أحسن من الألوان المتقاربة إلاَّ أنَّ أبن الأثير لم يرتضِ ذلك ، فذكر مفردات اقتربت فيها المخارج ، وعلى الرغم من ذلك لا ينفر منها السمع.

فالجيم والياء والشين مخارج متقاربة ، فإن قيل جيش كانت لفظة محمودة.

وفي العصر الحديث يؤكد الرافعي مسألة الانسجام ليس بين الحروف فقط ، بل بين صفات هذه الحروف « الهمس ، والجهر ، والشدة ، والرخاوة.. » . فقوله تعالى :

﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ ﴿الشعراء﴾.

فالطاء حرف إطباق شديد، واستعلاء، وجهر. أمَّا الشين فهو حرف همس، ورخاوة، وانفتاح، إنَّه انسجام بين الصفات.

وكذلك يبرز الانسجام من خلال الحركات «لم يمسسني»:

السين الأولى مفتوحة والثانية ساكنة.

«سلككم»: الكاف الأولى مفتوحة، والثانية مضمومة.

٢- المفردات الطويلة في القرآن:

وكذلك فإن ابن سنان يعيب طول الكلمات بخلاف ابن الأثير، حيث استدل ابن سنان بقبح شعر القائل:

إنَّ الكرام بلا كرام منهم

مثل القلوب بلا سويداواتها

فأجاب ابن الأثير إنَّ قبحها لم يكن بسبب طولها، وإنما لأنها في نفسها قبيحة، وقد كانت منفردة حسنة. وهذا بخلاف ما ورد في القرآن: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿النور: ٥٥﴾.

﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ ﴿البقرة: ١٣٧﴾.

﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ ﴿الأعراف: ١٢٤﴾، ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ ﴿الحجر: ٢٢﴾.

ونلاحظ:

١- تلاؤم الحروف قوة وسهولة مع المعنى والموقف.
٢- تدخل المدود والحركات في طول المفردات، إذ تقسمها إلى مقاسات صغيرة سهلة في النطق والسمع.
٣- ليست العبرة في كثرة عدد الحروف المفردة، بل في نوعية هذه الحروف.

٣- **خفة المفردات:** وهي تشمل كل مفردات القرآن، فليس فيه ما يثقل نطقاً أو سمعاً.

٤- **الحركات والمدود:** «للمد دلائله الخاصة بكل سورة، ففي كلمة الصاخة، يأتي العنف والقسوة، وكأنه يشق الآذان، وفي كلمة الرحمن يدل على معنى الإعلان ومعنى الصعود بالبشر إلى الملكوت، كما نجد هذا متجلياً في المآذن التي تصعد بتضرع المؤمنين إلى السماء.

٥- **مظاهر الأنوماتوبيا:** وهي عملية تجسيد الصوت للمعنى، فيكون الشكل بذاته دالاً على مضمونه، وقد جاء تعريفها:

١- هي تسمية الأشياء بحكاية أصواتها كالقهقهة بالنسبة إلى الأسنان، والصهيل بالنسبة إلى الفرس، والخرير بالنسبة إلى الماء.

٢- **المحاكاة الصوتية:** أي اختيار ألفاظ يوحي صوتها بمعناها.

وكتب الإعجاز القديمة لم تنوّه بهذه الجمالية، وجذورها موجودة في تراثنا، فهي ليست مجرد تأثر بالنقد الغربي الحديث. فأبو الفتح ابن جني يذكر الآية الكريمة:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ ﴾

﴿مريم﴾ .

قال: «أي تزعجهم وتقلقهم، فهذا في معنى تهزهم هزاً والهمزة أخت الهاء...».

وفي قوله تعالى: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ ﴾ ﴿الرحمن﴾ .

يقول «النضح للماء ونحوه. والنضخ أقوى من النضح فجعلوا الحاء -لرقتها- للماء الضعيف والخاء -لغلظتها- لما هو أقوى منه».

أمّا عند المحدثين فسيد قطب يقول عن الآية: ﴿ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ ﴿الواقعة﴾ :

«بأنَّ لفظ الزقوم نفسه يصوّر بجرسه ملمساً خشناً شائكاً مدبباً يشوك الأنف بَلْهَ الحلوق».

وعن قوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ ﴿فاطر: ٣٧﴾.

يقول «ثم ها نحن أولاء يطرق أسماعنا صوت غليظ محشرج، يختلط الأصداء متناوح من شتى الأرجاء صوت المنبوذين وجرس اللفظ نفسه يلقي في الحس هذه المعاني جميعاً».

وكذلك في أسماء القيامة كالصاخة، والقارعة، والحاقة والطامة، وهي «لفظة مصورة بجرسها لمعناها، فهي تطم وتعم، وتطغى على السماء المبنية، والأرض المدحوة».

وكذلك أحمد بدوي يقول: إننا إذا سمعنا قوله: ﴿ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ ﴿فصلت: ١٦﴾ يحمل إلينا صوت الريح العاصفة.

وقوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ﴾ ﴿فاطر: ١٢﴾ تحمل الخاء إلى الأذن صوت الفلك تشق عباب الماء.

ومن المحدثين كذلك الدكتور صبحي الصالح في كتابه مباحث في علوم القرآن، إذ يقول عن قوله تعالى:

﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ ﴾ ﴿إبراهيم: ١٦ ـ ١٧﴾.

يقول عن لفظة يتجرعه: «وما أحسب شفتيك منقبضتين استقباحاً واستهجاناً لحال الكافر الذي يتجرع صديده ولا يكاد يسيغه، فنستشعر في لفظة التجرع ثقلاً وبطأً يدعوان إلى التقزز والكراهية.

ثالثا: ظلال المفردة والمعنى:

١ - الدلائل التهذيبية في مفردات القرآن:

أ- في أمور النساء:

لقد تنبه الزمخشري إلى جمال المس في الآية الكريمة:
﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ ﴿مريم: ٢٠﴾.

حكاية عن مريم عليها السلام إذ يقول: «جعل المس عبارة عن النكاح الحلال لأنّه كناية عنه كقوله تعالى:

﴿ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾ ﴿البقرة: ٢٣٧﴾.

﴿ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ ﴿النساء: ٤٣﴾.

والزنا ليس كذلك، وإنما يقال فيه: فجرّ فيها، وخبث فيها وما أ شبه ذلك. وليس بقمين أن تراعي فيه الكنايات والآداب».

❖ والزركشي يقف مع الآية الكريمة: ﴿ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ ﴾ ﴿البقرة: ١٨٧﴾ قائلاً: «وفي عادة القرآن العظيم الكناية عن الجماع باللمس، والملامسة، والرفث، والدخول، والنكاح ونحوهن، فكنى بالمباشرة عن الجماع لما فيه من التقاء البشرتين».

❖ ونحن إذا تأملنا قوله تعالى: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا ﴾ ﴿الأعراف: ١٨٩﴾.

نلاحظ أن التعبير أبعد كلمة جامعها أو ضاجعها، وإذا عدنا إلى الأصل اللغوي –كما فعل الزركشي– نصل إلى دلالات رفيعة، فالكلمة تغشاها تعني التغطية، فكأن الرجل غطاءٌ للمرأة، وهذا يدل على رضاها التام فلا ترى غيره، وهذا هو المثل الأعلى للحب الزوجي، والإنجاب وعمارة الأرض, والسكينة شرط أساسي في حياة الرجل والمرأة، لذلك ذكر الراحة النفسية أولاً.

ب- جوانب تهذيبية عامة:

فالزمخشري عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ ﴿البقرة: ١٩﴾.

يستخدم أسلوب الفنقلة[١] على جاري عادته في تفسيره ويقول:

«فإن قلت: فالإصبع التي تسد بها الأذن إصبع، خاصة، فلم ذكر العام دون الخاص. قلتُ: لأنَّ السبابة فعالة من السب، فكان اجتنابها أولى بآداب القرآن. ألا ترى أنهم قد استبشعوها فكنّوا عنها بالمسبَّحة، والسبَّاحة، والمهللة الدّعاءة.. فإن قلتَ: فهلاّ ذكر بعض هذه الكنايات؟

قلتُ: هي ألفاظ مستحدثة لم يتعارضها الناس في ذلك العهد».

---

(١) الفنقلة تعني عبارة فإن قلتَ قلتُ.

٢-سمة الاختزان في مفردات القرآن:

لعل الجاحظ أول من أشار إلى جمالية الاختزان في ألفاظ القرآن، فقد قال في كتاب الحيوان عند حديثه عن كتابه المفقود «نظم القرآن» وتعرضه لقوله تعالى حين وصف خمر أهل الجنة ﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ ﴿الواقعة﴾.

«وهاتان الكلمتان قد جمعتا جميع عيوب خمر أهل الدنيا. وقوله عز وجل حين وصف فاكهة أهل الجنة فقال:

﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ ﴿الواقعة﴾ جمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعاني».

وكذلك في قوله تعالى:

﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ ﴾ ﴿النازعات﴾. قال:

«كيف دل بشيئين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتاً ومتاعاً للأنام من العشب، والشجر، والحب، والثمر،

والحطب، والعصف، واللباس، والنار، والملح لأنَّ العيدان والملح من الماء. وكذلك فالثعالبي في كتابه «الإعجاز والإيجاز» يقول عن الآية الكريمة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾ ﴿الأحقاف: ١٣﴾:

«استقاموا» كلمة واحدة تفصح عن الطاعات كلها في الائتمار والانزجار.

٣- مناسبة المقام:

يقول الخطابي عن الآية الكريمة: ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾ ﴿يوسف: ١٧﴾.

«فإن الافتراس معناه في فعل السبع القتل فحسب، وأصل الفرس دقُّ العنق، والقوم إنما ادعوا على الذئب أنَّه أكله أكلاً وأتى على جميع أجزائه وأعضائه فلم يترك مفصلاً ولا عظماً، ذلك لأنهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثر باقٍ منه يشهد بصحة ما ذكروه».

❖ والشريف الرضي في كتاب «تلخيص البيان في مجازات القرآن» حول الآية: ﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾ ﴿آل عمران: ٢٧﴾. يقول: «لفظة الإيلاج هنا أبلغ لأنَّه يفيد إدخال كل واحد منهما في الآخر بلطيف الممازجة وشديد الملابسة».

❖ وقد وضع الخطيب الإسكافي كتاباً نفيساً أسماه «درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز». وعند تفسيره للآيتين: ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ ﴾ ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ﴾ من سورة الكهف قال «قيل الأمر إنه الداهية. وقيل إنه العجب والنكر ما تنكره العقول ولا تعرفه ولا تجوزه.. والنكر لا يستعمل إلاَّ في المذموم الذي يخرج عن المعروف في العقل أو الدين. فاختص الأول بالإمر. لأن خرق السفينة التي لم يغرق فيها أحد أهون من قتل الغلام الذي قد هلك».

نموذج من الإعجاز البياني في القرآن يتجلى من خلال حرف.

سر زيادة الكاف[1] في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ ﴿الشورى﴾.

زعموا زيادة الكاف هنا فراراً من المحال العقلي، إذ لو كانت باقية على أصلها للزم التسليم بثبوت المثل.

وحاول بعضهم توجيه عدم الزيادة بأنه الدلالة على المطلوب بلازم الكلام حيث نفي مثل المثل يستلزم نفي المثل: إذ لو كان له مثل لكان لمثله أيضاً مثل وهو الله تعالى تحقيقاً لقضية التماثل.

فهو نفي للمثل بهذه الطريقة الملتوية نظير قولهم: «أنت وابن أخ خالتك» يعد نوعاً من التعمية في الكلام شبيهاً بالألغاز.. الأمر الذي تأباه طبيعة الجدّ في تعابير القرآن.

---

(١) تلخيص التمهيد ج٢ ص٢١٠ والنبأ العظيم ص١١٣.

ولكن لتوجيه هذا الكلام تأويل مشهور:

لو قيل «ليس مثله شيء» كان المنفي هو المماثل له تماماً، وفي جميع أوصافه ونعوته وخصوصياته الكلية والجزئية. أليس على شاكلته التامة شيء. وهذا يوهم أن عسى قد يوجد من يكون على بعض أوصافه. وفي رتبة تالية من المماثلة التامة، لأنَّ هذا المعنى لم يقع تحت النفي.

وعليه فكان موضع الكاف هنا نفياً للمماثلة، وما يشبه المماثلة، أو يدنو منها بعض الشيء فليس هناك شيء يشبه أن يكون مماثلاً له تعالى، فضلاً عن أن يكون مثلاً له على الحقيقة. وهذا من باب التنبيه بالأدنى دليلاً على الأعلى. على حد قوله تعالى:

﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ ﴿الإسراء: ٢٣﴾.

وتأويل آخر أدق: وهو أنَّ الآية لا ترمي نفي الشبيه له تعالى فحسب، إذ كان يكفي لذلك أن يقول «ليس كالله شيء» أو «ليس مثله شيء» بل ترمي وراء ذلك دعم النفي

بما يصلح دليلاً على الدعوى والإلفات إلى وجه حجة هذا الكلام وطريق برهانه العقلي.

ألا ترى أنك إذا أردت أن تنفي نقيصة عن إنسان فقلت «فلان لا يكذب» أو «لا يبخل» كان كلامك هذا مجرد دعوى لا دليل عليها، أما إذا زدت كلمة المثل وقلت: «مثل فلان لا يكذب» أو «لا يبخل» فكأنك دعمت كلامك بحجة وبرهان. إذ من كان على صفاته وشيمه الكريمة لا يكون كذلك لأن وجود هذه الصفات والنعوت مما تمنع عن الاستسفال إلى رذائل الأخلاق، وهذا منهج حكيم وضع عليه أسلوبه كلامه تعالى، وأنَّ مثله تعالى–ذا الكبرياء والعظمة– لا يمكن أن يكون له شبيه، وأنَّ الوجود لا يتسع لأثنين من جنسه فجيء بأحد لفظي التشبيه ركناً في الدعوى، وبالآخر دعامةً لها، وبرهاناً عليها، وهذا من جميل الكلام وبديع البيان ومن الوجيز الوافي.

الحقيقة والمجاز في القرآن[1]

من الغريب إنكار بعض العلماء وقوع المجاز في القرآن «منهم الظاهرية، وابن القاص من الشافعية، وابن خويز منداد من المالكية وشبهتهم أنَّ «المجاز أخو الكذب» والقرآن منزه عنه، وأنَّ المتكلم لا يعدل إليه إلاَّ إذا ضاقت به الحقيقة فيستعير وذلك محال على الله».

لكنَّ الذين تذوقوا جمال الأسلوب القرآني يرون أنَّ هذه الشبهة باطلة «ولو سقط المجاز من القرآن لسقط منه شطر الحسن، فقد اتفق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة، ولو وجب لوجب خلوه من الحذف، والتوكيد، وتثنية القصص وغيرها»[2].

(١) مباحث في علوم القرآن د. صبحي الصالح ص٣٢٩.
(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي.

وإذا كان بعض العلماء يعتبر الكناية ضرباً من ضروب المجاز أنكر وقوعها في القرآن منكرو المجاز فيه. ولكن للكناية مفهوماً آخر غير مفهوم المجاز، فهي لفظ أريد به لازم معناه وهي -على هذا- كثيرة في القرآن لأنها من أبلغ الأساليب في الرمز والإيماء. وللقرآن قصد إلى الرمز في مواطن لا يجمل فيها التصريح، فإذا أراد الله أن يعبر عن الغاية من المعاشرة الزوجية -وهي التناسل- رمز إلى ذلك بلفظ «الحرث» في قوله: ﴿ نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ ﴾ ﴿البقرة: ٢٢٣﴾.

الإعجاز في نغم القرآن(١):

إنَّ هذا القرآن في كل سورة منه وآية، وفي كل مقطع منه وفقرة، وفي كل مشهد منه وقصة، وفي كل مطلع منه وختام–يمتاز بأسلوب إيقاعي غني بالموسيقى مملوء نغماً.

وإنَّ هذه الموسيقى الداخلية لتنبعث في القرآن حتى من اللفظة المفردة في كل آية من آياته, فتكاد تستقل –بجرسها ونغمها– بتصوير لوحة كاملة فيها اللون زاهياً، أو شاحباً، وفيها الظل شفيفاً أو كثيفاً.

فنتصور مثلاً ونحن نرتل دعاء زكريا شيخاً جليلاً مهيباً على كل لفظة ينطق بها مسحة من رهبة وشعاع من نور، ونتمثل هذا الشيخ الجليل على وقاره متأجج العاطفة متهدج الصوت طويل النفس, ما تبرح أصداء كلماته تتجاوب في أعماق قلوبنا شديدة التأثير. بل إنَّ زكريا في دعائه ليحرك القلوب المتحجرة بتعبيره الصادق عن حزنه وأساه خوفاً من

---

(١) مباحث في علوم القرآن د. صبحي الصالح ص٣٣٤.

انقطاع عقبه. وهو قائم يصلي في المحراب لاينى ينادي إسم «ربه» نداءً خفياً ويكرر اسم ربه بكرة وعشياً، ويقول في لوعة الإنسان المحروم وفي إيمان الصديق الصفي:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾ ﴿مريم﴾.

وإنَّ البيان لا يرقى هنا إلى وصف العذوبة التي تنتهي في فاصلة كل آية بيائها المشددة، وتنوينها المحول عند الوقف ألفاً لينة كأنها في الشعر ألف الإطلاق: فهذه الألف اللينة الرخيَّة المناسبة تناسقت بها «شقياً –ولياً–رضياً» مع عبدالله زكريا ينادي ربه نداءً خفياً، ولقد استشعرنا هذا الجو المؤثر كله، ونحن نتصور نبياً يبتهل وحده في خلوة مع الله، وكدنا نصغي إلى ألحانه الخفية تصاعد في السماء، فكيف بنا لو تصورنا جماعة من الصديقين الصالحين وصفهم الله بأنهم من أولي الألباب «الذين يتفكرون في خلق السماوات

والأرض». كيف بنا لو تصورنا هؤلاء يشتركون ذكراناً وإناثاً وشيباً بأصوات رخية متناسقة، تصعد معاً، وتهبط معاً، وهي تجأر إلى الله وتنشد هذا النشيد الفخم الجليل ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾ ﴿آل عمران﴾.

إنَّ في تكرار عبارة «ربنا» لما يلين القلب، ويبعث فيه نداوة الإيمان، وإنَّ في الوقوف بالسكون على الراء المزلقة المسبوقة بهذه الألف اللينة لما يعين على الترخيم والترنيم، ويعوّض في الأسماع أحلى ضربات الوتر على أعذب العيدان[1].

أقول أمَّا، وقد انجر بنا الكلام إلى حديث الكناية والمجاز فلا بأس من التعرّض لبحثٍ لذيذ كذلك وهو ما أسموه بالمعاني الثانوية[2].

---

(١) مباحث في علوم القرآن صبحي الصالح
(٢) الإعجاز القرآني، اسلوباً ومضموناً للدكتور شلتاغ عبود ص٩-٢١ بتصرف.

ومجالها واسع في الأدب وفي القرآن الكريم، وخلاصة هذا المطلب أنَّ «المعاني الأولى هي مدلولات التراكيب أمَّا المعاني الثواني فهي الأغراض التي يصاغ منها الكلام ففي قولنا: هو أسد في صورة إنسان يكون المعنى الأول مفهوم هذا الكلام والثاني أنَّه شجاع».

ولنضرب لك مثلاً بالحديث النبوي الشريف «ليدخلن هذا الدين ما دخل عليه الليل» فالقارئ العادي يفهم من لفظة الليل دلالتها الظاهرية من الوقت المخصوص من اليوم بل إنَّ عبد القاهر الجرجاني –على جلالة قدره في البلاغة– قال بأن الليل –هنا– تجرد لمعنى الوصول إلى كل مكان. ولكنَّ الدكتور محمد أبو موسى، يرى أنَّ الأمر ليس كذلك، بل في الليل دلالة أخرى وهي أن هذا الدين سيشع بأنواره في الأماكن التي أحاطت بها ظلمات الشرك والضلال، وهي أماكن متعددة من هذه الأرض.

وربما استطعنا أن نجد معنىً آخر أو إيحاءً آخر من الليل في الحديث، وهو أنَّه يوجد من الأماكن في الأرض ما لا يصلها

ضوء الشمس طيلة فصول السنة ولهذا جاء التعبير بـ« الليل » ليدل هذه الدلالة على الاتساع ولو قال « ما دخل عليه النهار » لما شعت هذه المعاني.

وبهذا لا يكون اللفظ في المجال الأدبي مجرد أداة لنقل معنى محدد، بل ميداناً رحباً لإيحاءات متعددة. كما أنَّ الهدف من الصورة الأدبية في التشبيه، أو الاستعارة، أو الكناية ليس مجرد التصوير أو التجسيم، بل ما يختفي وراءها من معنىً ثانٍ أو ثالث، وهو معنى وثيق الاتصال بالصورة أو ناشئ عنها. فلنقف مع المعاني القرآنية من خلال العناوين الآتية:

١ - دلالات لغوية:

فالكلمة في اللغة العربية -وفي أصل وضعها اللغوي واشتقاقات هذا الأصل- تدل على معانٍ متعددة.

ولنقرب هذه المقولة بالمثال القرآني التالي قال تعالى: ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾ «محمد».

فلفظ «عرّفها» تدل من الناحية اللغوية على أن الله سبحانه علمهم منازلهم فيها, وتدل لغوياً أيضاً على إرادة «العرف» الذي هو الطيب.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾ ﴿الفرقان﴾.

فالمعنى الأول أنَّ المؤمنين من صفاتهم أنهم لا يشهدون شهادة الزور، ولا يلبسون الحق بالباطل في الإرادة بشهادتهم أمام القاضي أو الحاكم الشرعي. والمعنى الثاني أنهم لا يشاهدون -مختارين- أي مشهد ليس فيه لله رضا ولا يجلسون في مجلس يعصى فيه الله.

٢- لسنا هنا بإزاء ما تعنيه اللغة من دلالات أولى أو ثانية، بل بإزاء ما نضيفه إلى اللغة من أحاسيس، أو أقل ما تمنحه اللغة لنا من أحاسيس. وهذه الإيحاءات والأحاسيس تأخذ مساربَ واتجاهات شتى تفوق ما تمنحه اللغة من معانٍ، كما لاحظنا في الفقرة السابقة.

خذ قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ ﴿آل عمران: ٣٧﴾، فماذا نفهم من كلمة المحراب؟ إنَّ المعنى اللغوي الذي يتبادر إلى الذهن أولاً هو المكان المحدد من المسجد الذي يصلي فيه الإمام. ولكننا نستطيع أن نتحسس الدلالة على الحرب من «المحراب» إنها حرب مع أنفسنا ومع الشيطان الذي يجري في عروقنا مجرى الدم، كما جاء في التعبير النبوي الشريف فالصلاة معركة حامية يحاول الشيطان أن يستحوذ عليك فيها ويذكرك بكل شيء إلاَّ الله.

ولنضرب مثلاً آخر للإيحاء اللغوي بقوله تعالى:

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ﴿البقرة: ٤٣﴾.

فماذا أنت مدرك من دلالةٍ لفعل الأمر «أقيموا» ألم يكن الذي يتبادر إلى ذهنك أول وهلة هو أداء الصلاة؟

ولكنك لو أطلت التأمل لرأيت المطلوب أداء كامل للصلاة من حيث الاستقرار فيها حقه، بل كل حركة مع التوجه الخالص لله سبحانه.

ونستطيع أن نمضي مع الإيحاء اللفظي لهذا الفعل درجة أعلى فنبلغ به بعداً أوسع من البعد الفردي للأداء فنقول: إنَّ إقامة الصلاة لا تعني أن تقيمها وحدك حتى ولو أقمتها في أحسن أداء وأقومه، بل تعني أيضاً وهذا من أحاسيسك الخاصة أن تجعل منها فعلاً معروفاً مقاماً لدى الأمة ذاتها تجعل منها عرفاً شائعاً.

ومثال ثالث من سورة الكوثر فالكوثر على وزن «فوعل» وتدلّ على الشيء الكثير فهو النهر الجاري في الجنة، أو الحوض الذي يرده الناجون من النار وهو خلود اسم محمد ﷺ في الشهادة والآذان مقترناً باسم الله، وهي الزهراء عليها السلام التي جرى منها نسل الرسول ﷺ، وهذا يستوفي من السياق، حيث جاءت السورة رداً على قول المشركين أنّه ﷺ أبتر لا عقب له.

٣- دلالات عقلية وفكرية:

ولنأخذ مثلاً لهذا بقوله تعالى:

﴿ ۞ وَٱعۡبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُوا۟ بِهِۦ شَيۡـًٔا ﴾ ﴿النساء: ٣٦﴾

ولنقل ما قاله السيد العلامة الطباطبائي[١] قال: «عند التدبر في هذه الآية ترى بالنظرة البدائية في قوله:

﴿وَلَا تُشۡرِكُوا۟ بِهِۦ شَيۡـًٔا ﴾ أنه تعالى نهى عن عبادة الأصنام، وعندما نتوسع نرى النهي عن عبادة غير الله من دون إذنه، ولو توسعنا أكثر من هذا لرأينا النهي عن عبادة الإنسان نفسه باتباع شهواتها، أمَّا لو ذهبنا إلى توسع أكثر فنرى النهي عن الغفلة عن الله والتوجه إلى غيره أيّاً ما كان ذلك الغير، بهذا نفهم من قول الرسول ﷺ:

«إنَّ للقرآن ظهراً وبطناً ولبطنه بطن إلى سبعة أبطن» وعلى هذا يكون للقرآن ظاهر وباطن أو ظهر وبطن، وكلا

---

(١) القرآن في الإسلام.

المعنيين يراد من الآيات الكريمة وإنَّ إرادة الظاهر لا تنفي إرادة الباطن، وإرادة الباطن لا تزاحم إرادة الظاهر.

نفهم من كلام السيد الطباطبائي ما يلي:

١- إنَّ المعاني الثواني للتعبير القرآني ليس لها حدود، والسبعة إشارة للكثرة وربما فهمنا ذلك من الحديث المشهور: «نزل القرآن على سبعة أحرف».
٢- إنَّ هذا التعدد في الدلالات والمعاني ينسجم مع تفاوت البشر في الفهم والإحساس والتفاعل مع النص القرآني. ومن موروثاتهم وثقافاتهم واستعداداتهم الفطرية وبيئاتهم وعصورهم: «إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم» حديث شريف.
٣- ومهما تعددت هذه المعاني فلا تدابر ولا تناقض بينها ولا مزاحمة، بل بعضها يرشح البعض الآخر.

٤- إيحاءات قلبية ونفسية «وجدانية»:

فمن ذلك إخفاء الجزاء في قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ ﴿السجدة: ١٧﴾.

فوراء المعنى الظاهر –وهو أن العيون تعطى حتى تستقر– معنى يستثير النفس والقلب أمام الوعد الإلهي.

ويمكن أن نمثل أيضاً بقوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ ﴿الزمر﴾.

قال السيوطي: فحذف الجواب –أي جواب قوله تعالى «حتى إذا جاءوها»– إذا كان وصف ما يجدونه ويلقونه عند ذلك لا يتناهى فجعل الحذف دليلاً على ضيق الكلام عن وصف ما يشاهدونه، وتركت النفوس تقدر ما شأنه ولا يبلغ مع ذلك كنه ما هنالك. لقوله ﷺ: «**فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**».

الإعجاز العلمي

مقدمة حول ضوابط البحث في الإعجاز العلمي.

١- القرآن كتاب هداية: نزل هذا الكتاب ليخرج الناس من الظلمات إلى النور وليس فيزياء أو كيمياء[1] أو نبات أو حيوان، ولم يطرح نفسه بديلاً عن قدرة الإنسان الخلاقة ومواهبه، فينبغي أن تبقى الدراسات المتعلقة بالآيات الكونية في حدود هذا الغرض، ولا تؤثر على الهدف الأساسي للقرآن الكريم.

٢- ترك الإفراط والتفريط: وعدم تحميل النصوص ما لا تحتمل بليِّ عنق الآية، وجعل تفاسير القرآن وكأنها كتب للعلوم المتخصصة، فلا نترك شاردة ولا واردة ولا نظرة مستحدثة إلاّ ونربطها بتفسير الآية الكريمة، إنَّ هذا العمل يخرجنا عن حد الاعتدال.

٣- مرونة الأسلوب القرآني: وقابليته لوجوه التأويل، فلا بدَّ من مراجعة اللغة العربية لتكون المعاني التي تحتملها

---

(١) انظر المدرسة القرآنية للسيد الصدر ص٤٨-٤٩.

الكلمة واضحة في الذهن عند الإقدام على تفسيرها في هذا المجال.

٤- الحقائق العلمية مناط الاستدلال: الاقتصار على الحقائق العلمية دون النظريات والفرضيات، ولو من باب الاستئناس لأنها قد تتغير وكلامه سبحانه منزه عن أن يطرأ عليه مثل ذلك.

٥- عدم حصر دلالة الآية على الحقيقة الواحدة: فمثلاً كنا إلى ما يقرب من مائة سنة ننظر إلى دلالة تسوية البنان في قوله تعالى:

﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ ﴾ ﴿القيامة﴾.

نظرة تختلف عن نظرتنا لها الآن بعد معرفة قضية البصمات إلا إننا لا نبطل كلام سلفنا في معنى الآية[1].

---

(١) مثلاً يقول السيد شبر في تفسيرها: أنملته التي بها يتم الإصبع بأن تؤلف سلامياته كما كانت مع صغرها فكيف بالكبار؟

فالآية تدل كذلك على ما قالوه وما فهموه، وإن كان فهمنا على ضوء العلم الحديث أعمق وأدلّ، وقد يكشف لنا المستقبل عن أسرار أخرى.

٦- استحالة التصادم بين الحقائق القرآنية والحقائق العلمية:

وما يثيره بعض الناس من توهم بوجود تناقض، فهو سوء فهم للحقيقة القرآنية بأن يتوهمها قطعية الدلالة، ولا تكون كذلك، أو سوء فهم للحقيقة العلمية بأن يظنّها حقيقة علمية، وهي لا تزال في طور النظرية نحن نقول جازمين باستحالة وقوع مثل هذا التناقض لأنَّ مصدر القرآن والكون واحد وهو الله عز اسمه.

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ ﴿الملك﴾.

﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾ ﴿الفرقان﴾.

٧- اتباع المنهج القرآني في طلب المعرفة:

من البر والحكمة سلوك سبل الأسباب للوصول إلى حقائق المعرفة «دخول البيوت من أبوابها». والتعرف على سنن الكون مهم هنا. ويجب أيضاً عدم تعجل النتائج بأن نعلم أنَّ الأمور مرهونة بأوقاتها، وأنَّ خير مفسر للقرآن الزمن[١].

وقد أضاف الدكتور زغلول النجار ضوابط أخرى كمراعاة قواعد العربية، وأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، والمطلق، والمقيد، والمجمل، والمفصل، وجمع القراءات الصحيحة، ومراعاة السياق، ومراعاة قاعدة أنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وجمع النصوص القرآنية المتعلقة بالموضوع الواحد، والأحاديث الصحيحة، وتحري الدقة وإخلاص النية[٢].

---

(١) مباحث في إعجاز القرآن د. مصطفى مسلم ص١٦٠-١٦٤.

(٢) مباحث في إعجاز القرآن د. مصطفى مسلم ص١٦٠-١٦٤.

الخلاف حول جواز التفسير العلمي،

وهنا نلحظ الانقسام إلى فريقين:

١- القائلون بالجواز كالكواكبي، والشيخ الطنطاوي جوهري في تفسيره، أضف إلى ذلك من كتبوا في الإعجاز العلمي كتباً مستقلة من أمثال الأستاذ محمد محمود إبراهيم الذي ألّف كتاباً من عدة أجزاء تحت اسم «إعجاز القرآن في علم طبقات الأرض» والأستاذ حنفي أحمد في كتاب «معجزة القرآن في وصف الكائنات» وكذا مؤلفات الدكتور محمد جمال الدين الفندي وكتاب الاعجاز العلمي في القرآن لعبد الرزاق نوفل.

وفي هذه الأيام ما كتب الدكتور زغلول النجار حول السماء والأرض.

٢- المانعون: وعلى رأسهم الدكتورة عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطئ».

حجج الفريق الأول:

أ- الإعجاز العلمي أظهر الأدلة على أنَّ القرآن تنزيل من رب العالمين، وخاصة بعد أن فسدت السليقة العربية، وفقدت المعايير قيمتها التي كانت عند العرب وقت نزول القرآن.

ب- الإعجاز العلمي يفحم أعداء الإسلام ويخرس ألسنتهم.

ج- إنَّ القرآن قد اشتمل على كثير من العلوم الكونية والاجتماعية وقد مرت العصور وتقلبت أحوال البشر في العلوم، ولم يظهر خطأ قطعي في شتى منها، ولهذا صحَّ أن تجعل سلامته من هذا الخطأ ضرباً من ضروب إعجازه. وإن لم يكن هذا مما تحدى به الرسول قومه لأنَّه لم يكن ليظهر إلاَّ من بعده، فادخر ليكون حجة على أهله.

د- إنَّ القرآن ليس للعرب فقط حتى يكون إعجازه بلاغياً يلمسه الفصحاء وحدهم، ولكنه إعجاز بشري يشمل الناس كافة.

ه- كما أنَّ القرآن ليس خاصاً بجيل واحد فتحصر تفسيره فيما روي عن السلف.

و- إنَّ مثل هذه المحاولات تكشف عن اتجاه أصيل في قضية الإعجاز، ينقلها من النظرة الجزئية إلى النظرة الجامعة الشاملة التي تتخطى حدود البيئة والعصر.

حجج الفريق الثاني:

١- إنَّ القرآن قد خاطب العرب أوَّل من خاطب الناس، وهم قوم أميون لا يحتاجون في فهم النصوص الصريحة إلى التغلغل في العلوم الكونية، وقد واجههم القرآن بما في مقدورهم أن يستوعبوه من الكلام فأدّى رسالته معهم على أحسن وجه.

٢- إنَّ كتاب الله كتاب هداية وتوجيه.

٣- النظريات العلمية في الكون لا تستقر على حال.

٤- إذا فسرنا القرآن بمقتضى النظر العلمي، فإننا نجعله ميداناً للتأويل المتناقض.

٥- وحتى لو لم يوجد التناقض، بل وجد الانسجام، فليس ذلك دليلاً على الإعجاز المرتبط بالتحدي، بل هو دليل على أنَّه منزل من عند الله، وليس كل ما نزل من عند الله معجزاً. فالتوراة والإنجيل وغيرها من الكتب السماوية التي نزلت من عند الله ولم توصف

بالإعجاز، كما وصف القرآن ولم يقع بها التحدي، كما وقع بالقرآن.

٦- الآيات الكونية لا تشمل سورة القرآن ولا آياته كلها، ومعلوم أنَّ التحدي وقع بأي سورة من سور القرآن.

٧- هذا الوجه من الإعجاز لن يوفق إلى نهجه إلاَّ أهل الاختصاص من العلم.

٨- في هذا الوجه من الإعجاز أيضاً منزلق خطير، إذ إنَّ بعض من يدعون العلم يحمِّلون آيات القرآن في هذا السبيل ما لا تحتمل، وقد ينسبون إلى العلم ما هو منه براء رغبة في إثبات إعجاز جديد للقرآن[1]. وذلك كمن استدل على القمر الصناعي بقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ ﴿القمر﴾.

أقول: إنَّ ما نقلناه من ضوابط في المقدمة كفيل بالرد على هذه الحجج الثمانية لفريق المانعين واحدةً واحدة.

---

(١) نظرية الاعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي القديم ١١٣.

القول بالتفصيل بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي،

ذهب إلى ذلك الدكتور زغلول النجار فقال: «في التفسير العلمي للآيات الكونية يجب أن توظف كل المعارف المتاحة من الحقائق والثوابت العلمية ولكن بما أنَّ العلم لم يصل بعد إلى الحقيقة في كل أمر من الأمور، ولا يزال أمامه من الغيوب الشيء الكثير، فلا أرى حرجاً في مجال التفسير العلمي للقرآن الكريم من توظيف النظريات والفروض والمشاهدات إذا لم تتوفر الحقائق والقوانين، وذلك لأنَّ التفسير يبقى جهداً بشرياً لحسن فهم دلالة الآية القرآنية لمن أصاب فيه أجران، ولمن أخطأ أجر واحد، والخطأ في التفسير لا يمكن أن ينسحب على جلالة القرآن الكريم.

أما الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، فلا يجوز أن يوظف فيه إلاَّ القطعي من الثوابت العلمية، وذلك لأنَّ المقصود بالإعجاز العلمي هو إثبات أنَّ القرآن الذي أوحى به إلى نبي أمي ﷺ في أمة أمية قبل أربعة عشر قرناً يحوي من حقائق

هذا الكون ما لم يتمكن الإنسان من الوصول إليه إلاَّ منذ عقود قليلة، وبعد مجاهدات طويلة استغرقت أعمار آلاف من العلماء عبر عدد من القرون المتواصلة، وهذا لا يمكن لعاقل أن يتصور له مصدراً إلاَّ بوحي من الله الخالق البارئ المصور»[1].

ويختصر هذا المعنى الدكتور محمد راتب النابلسي بقوله: «والفرق بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي، هو أنَّ التفسير العلمي كشف من معاني الآية، أو الحديث في ضوء ما ترجمت صحته من حقائق العلوم الكونية.

أمَّا الإعجاز العلمي فهو إخبار القرآن الكريم أو السنة النبوية بحقيقة أثبتها العلم التجريبي أخيراً، وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول ﷺ»[2].

---

(١) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة آيات الله في الإنسان ص٢٣.
وأيضاً آيات الله في الآفاق ص٢٣.
(٢) من آيات الإعجاز العلمي الأرض في القرآن الكريم ص٤٤-٤٥.

أقول:

١- ما المائز بين كون مسألةٍ ما تدخل في التفسير العلمي، أو الإعجاز العلمي فقد يفتح هذا الباب واسعاً أمام من يرى تبدل الفرضيات، فلا عليه إلاَّ أن يقول هذا من التفسير العلمي لا الإعجاز العلمي.
٢- الاقتصار على الحقائق هو الأحوط والأورع في التعامل مع كتاب الله.
٣- قول الدكتور النجار أنَّ هذا لا يمس جلالة القرآن، بل هو من الاجتهاد المأجور غريب. فالقرآن لفظ ومعنى، خطابات ومرادات ولا يمكن التفكيك بين المعنى أو المراد وبين اللفظ المعجز.

على أنَّ القياس على سائر التفاسير كالتفسير بالمأثور أو باللغة.. قياس مع الفارق: فالسلف وعلماء اللغة عندنا أقوالهم، وبين أيدينا أسانيدهم نستطيع كما فعل سلفنا من المفسرين تمحيصها وقبول ما يصح منها بعرضها على القرآن نفسه أولاً، ثم على الصحيح من السنة والقطعي من العقل.

الدكتور النجار يجيز التفسير العلمي حتى بالفروض والنظريات.

قال الدكتور زغلول النجار:

«أما القول بأن ما يسمى بحقائق العلم ليست إلاَّ نظريات وفروضاً يبطل منها اليوم ما كان سائداً بالأمس، وربما يبطل في الغد ما هو سائد اليوم، فهو أيضاً قول ساذج لأنَّ هناك فروقاً واضحة بين الفروض والنظريات من جهة، والحقائق والقوانين من جهة أخرى. وهي مراحل متتابعة في منهج العلوم التجريبية الذي يبدأ بالفروض ثم النظريات، وينتهي بالحقائق والقوانين.

والفروض: هي تفسيرات أولية للظواهر الكونية.

والنظريات هي صياغة عامة لتفسير كيفية حدوث تلك الظواهر ومسبباتها.

أمَّا الحقائق الكونية فهي كل ما ثبت، أو يثبت ثبوتاً قاطعاً في علوم الإنسان بالأدلة المنطقية المقبولة، وهي جزء من الحكمة التي نحن أولى الناس بها.

وكذلك القوانين العلمية، فهي تعبيرات بشرية عن السنن الإلهية في الكون تصف علاقات محددة تربط بين عناصر الظاهرة الواحدة، أو بين عدد من الظواهر الكونية المختلفة، وهي كذلك جزء من الحكمة التي أمرنا بأن نجعلها «ضالة المؤمن» كما أمر بذلك رسول الله ﷺ.

لذا حرص كثير من علماء المسلمين على ألا يتم تأويل الإشارات العلمية الواردة في القرآن الكريم إلاّ في ضوء الحقائق العلمية المؤكدة.

أمَّا الفروض والنظريات، فلا يجوز تحديمها في فهم ذلك. وحتى هذا الموقف نعتبره تحفظاً مبالغاً فيه. فكما يختلف دارسو القرآن الكريم في فهم بعض الدلالات اللفظية والصور البيانية وغيرها من القضايا اللغوية، ولا يجدون

حرجاً في ذلك في غيبة نص ثابت مأثور، فإننا لا نرى حرجاً على الإطلاق في فهم الإشارات الكونية الواردة بالقرآن الكريم على ضوء المعارف العلمية المتاحة حتى ولو لم تكن المعارف قد ارتقت إلى مستوى الحقائق الثابتة.

أقول: قد تبين لك من تضاعيف ثنايا ما سطرناه آنفاً تحقيق الحال في الكلام المزبور هنا فلا نعيد.

هل وقع التحدي بالإعجاز العلمي؟

هل وقع التحدي بجانب إعجاز القرآن العلمي، كما وقع بجوانب الإعجاز البياني من فصاحة وبيان ونظم وأسلوب؟

لاشكَّ أنَّ الإعجاز قائم-في الجملة- بهذا الجانب كسائر الجوانب، أمَّا التحدي فقد يقال باختصاصه بجانب البيان فحسب، إذ لم تكن إشارات القرآن العلمية معروفة عند نزوله لأحد من الناس، وإنما أثبته العلم بعد ذلك بعدة قرون أو سيثبتها عبر الأيام - فإن كان ذلك دليلاً على إعجازه في مجال قادم فإنَّه ليس دليلاً على وقوع التحدي به في أول يومه.

يبدو أنَّ الذي دعا بالقائل بعدم الشمول واقتصار التحدي على العرب الأوائل، وفي جانب بيانه فقط هي نظرته القاصرة على آيات وقع التحدي موجهاً إلى العرب بالذات ولاشكَّ أنَّ تحدياً موجهاً إلى العرب يومذاك لا يعني

سوى جانب البيان الذي فاق أساليب العرب وأعجزهم عن أن يأتوا بمثله.

غير أن تحدي القرآن لم يقتصر على فترة من الزمان، ولا على أمة من الناس دون من سواهم، فنراه وجه نداءه الصارخ إلى البشرية جمعاء في طول الزمان وعرضه. ولكل الأجيال ومختلف الأقوام وما شأنه ذلك لا يعقل اقتصاره على جانبي الفصاحة والبيان، إذ ليس كل الناس عرباً ولا كل العرب فصحاء فلا بدَّ أن في القرآن شيئاً هو الذي تحدي به تحدياً على وجه العموم؛ ومن ثم كان بمجموع الكتاب لا بسورة واحدة أو آية أو آيات بالذات.

قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ ﴿الإسراء﴾.

فهذا تحدٍّ عام وقع موجهاً إلى كافة الأنام سواء من عاصر نزول القرآن أو سائر الأيام[1].

وخلاصة القول في الإعجاز العلمي للقرآن الكريم أنه «أسلوب في الدعوة إلى دين الله بلغة مناسبة لعصر تفجر المعرفة العلمية وتطور الوسائل التقنية الذي نعيشه»[2].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين منزل القرآن العظيم والصلاة والسلام على عدول الكتاب محمد وآله الطيبين الطاهرين.

---

(١) تلخيص التمهيد ص٤٦٩و٤٧٣.

(٢) من آيات الإعجاز العلمي الأرض في القرآن الكريم ص٦٩.

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم «وقد قدمناه على غيره لشرفه وعظمته».

٢- الإتقان في علوم لقرآن: «السيوطي دار الكتاب العربي ط٢٠٠٤.

٣- الإعجاز البياني للقرآن: الدكتورة بنت الشاطئ «عائشة عبد الرحمن».

٤- الإعجاز في القرآن طريق إلى الإيمان: منيب الطحان دار سعد الدين ط١ ١٩٩٩.

٥- الإلهيات: الشيخ السبحاني.

٦- بحث حول المهدي: السيد الشهيد محمد باقر الصدر.

٧- بداية المعارف الإلهية في شرح عقائد الإمامية: محسن خرازي.

٨- البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن: تأليف كمال الدين الزملكاني.

٩- البيان في تفسير القرآن: السيد أبو القاسم الخوئي.

١٠- بينات المعجزة الخالدة: السيد أبو القاسم الخوئي.

١١- تجريد الاعتقاد.

١٢- التصوير الفني في القرآن: سيد قطب.
١٣- تفسير التحرير والتنوير: الطاهر بن عاشور.
١٤- التفسير الكبير: الفخر الرازي, دار إحياء التراث العربي بيروت ط٤ ٢٠٠١م.
١٥- تفسير الكشاف: جار الله الزمخشري.
١٦- تفسير الميزان: العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي.
١٧- تفسير جوامع الجامع: الطبرسي.
١٨- تفسير شبَّر: السيد عبد الله شبَّر.
١٩- تفسير مجمع البيان: الطبرسي.
٢٠- التفسير والمفسرون في العصر الحديث: عبد القادر محمد صالح.
٢١- تلخيص التمهيد: الشيخ محمد هادي معرفة.
٢٢- جماليات المفردة القرآنية: د. أحمد ياسوف.
٢٣- رسائل أصولية: الشيخ جعفر السبحاني.
٢٤- الرسول والمرسل والرسالة: الشهيد السيد محمد باقر الصدر.

٢٥- الصحيح من سيرة النبي الأعظم : السيد جعفر مرتضى العاملي.

٢٦- الظاهرة القرآنية : مالك بن نبي.

٢٧- عقيدتنا في النبوة : إعداد لجنة دار الزهراء بيروت ط١ ١٩٨٨.

٢٨- علوم القرآن : الشهيد السيد محمد باقر الحكيم ط٣ ١٩٩٥ دار التعارف.

٢٩- الفتاوى الواضحة : الشهيد السيد محمد باقر الصدر.

٣٠- الكافي : الشيخ أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني.

٣١- لسان العرب لابن منظور.

٣٢- مباحث في إعجاز القرآن د. مصطفى مسلم ط٣ دار الكلم.

٣٣- مباحث في علوم القرآن : د. صبحي الصالح.

٣٤- محاضرات في الإلهيات : علي رباني الكَلبايكَاني.

٣٥- محمد في القرآن : السيد رضا الصدر.

٣٦- مدخل في إعجاز القرآن : محمود محمد شاكر.

٣٧- المدرسة القرآنية السيد الشهيد محمد باقر الصدر.

٣٨- المصباح المنير.
٣٩- المعجزة وكرامات الأولياء: ابن تيمية. تحقيق مصطفى عبد القادر عطا—الناشر مكتبة الشرق الجديد—بغداد.
٤٠- المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة: د. عبد المنعم الحنفي.
٤١- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي.
٤٢- المعجم الوسيط.
٤٣- معرفة القرآن: الشهيد الشيخ مرتضى مطهري.
٤٤- مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني —تحقيق صفوان عدنان داودي.
٤٥- مفردات القرآني في مجمع البيان: جمع إلياس كلانتري.
٤٦- مفهوم الإعجاز القرآني حتى القرن السادس: تأليف الدكتور أحمد جمال العمري.

٤٧- من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم «الأرض في القرآن–السماء في القرآن الكريم» : د. زغلول النجار.
٤٨- المناهج التفسيرية : الشيخ جعفر السبحاني.
٤٩- مناهل العرفان : الشيخ عبد العظيم الزرقاني المطبعة العصرية ط٤ ٢٠٠٤.
٥٠- المنجد في الإعلام.
٥١- المنجد في اللغة.
٥٢- المنطق : الشيخ محمد رضا المظفر.
٥٣- موجز علوم القرآن : د. داود العطار ط٣ الأعلمي ١٩٩٥.
٥٤- موسوعة الإعجاز العلمي «آيات الله في الإنسان– آيات الله في الآفاق» : د. محمد راتب النابلسي.
٥٥- موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون.
٥٦- الموضح عن جهة إعجاز القرآن «الصرفة» : السيد الشريف المرتضى ط١ ١٤٢٤ هـ تحقيق محمد رضا الأنصاري القمي.

٥٧- النبأ العظيم: الدكتور محمد عبدالله دراز.
٥٨- النبوة في القرآن الكريم: الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي.
٥٩- النبوة: الشهيد الشيخ مرتضى مطهري.
٦٠- نظرات معاصرة في القرآن الكريم: د. محمد حسين الصغير.
٦١- نظرية الإعجاز وأثرها في النقد العربي القديم.
٦٢- الوحي والنبوة: الشهيد الشيخ مرتضى مطهري.
٦٣- نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي القديم الدكتور احمد سيد محمد عمار.
٦٤- الاعجاز القرآني إسلوباً ومضموناً الدكتور شلتاغ عبود.

الفهرس

الفصل الأول
بحث حول التسمية بالمعجزة

الفصل الثاني
معجزة نبينا ﷺ الخالدة (القرآن الكريم)